لماذا دخلنا التيه وكيف نخرج منه؟

تأليف

فضيلة الشيخ الدكتور

سعيد عبد العظيم

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

دار القمة
لتوزيع الكتاب والشريط والسي دي
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٤٤٦٤٩٦

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
إسكندرية ت ٥٤٥٧٧٦٩


بسم الله الرحمن الرحيم

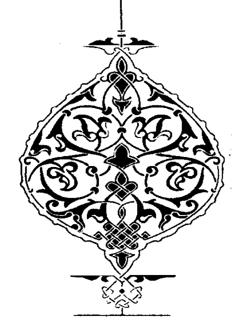

لماذا دخلنا
التيه
وكيف نخرج منه ؟



رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا
إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

رقم الإيداع
٢٠٠٧/١٠٢١٨

الترقيم الدولي
977-331-293-3



دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع

١٩،١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٤١١٩١٠ - ٠٢-٥٢٢٢٠٠٢
E-mail: dar_aleman@hotmail.com

مقدمة

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) ﴾ [آل عمران : ١٠٢] .

﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١) ﴾ [النساء : ١] .

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١) ﴾ .

[الأحزاب : ٧٠ ، ٧١] .

أما بعد :

فإنَّ أحسن الكلام كلام الله تعالى ، وخير الهدى هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار.

وبعد :

فهذه مجموعة من الخطب ألقيتها بمسجد الفتح بمدينة الإسكندرية ، رأى البعض أن تصدر في كتاب ، وكنت حين بدأت الحديث في قصة التيه أتصور أن الموضوع لا يحتاج أكثر من خطبة ، ثم اتضح لي مسائل وجوانب هامة في

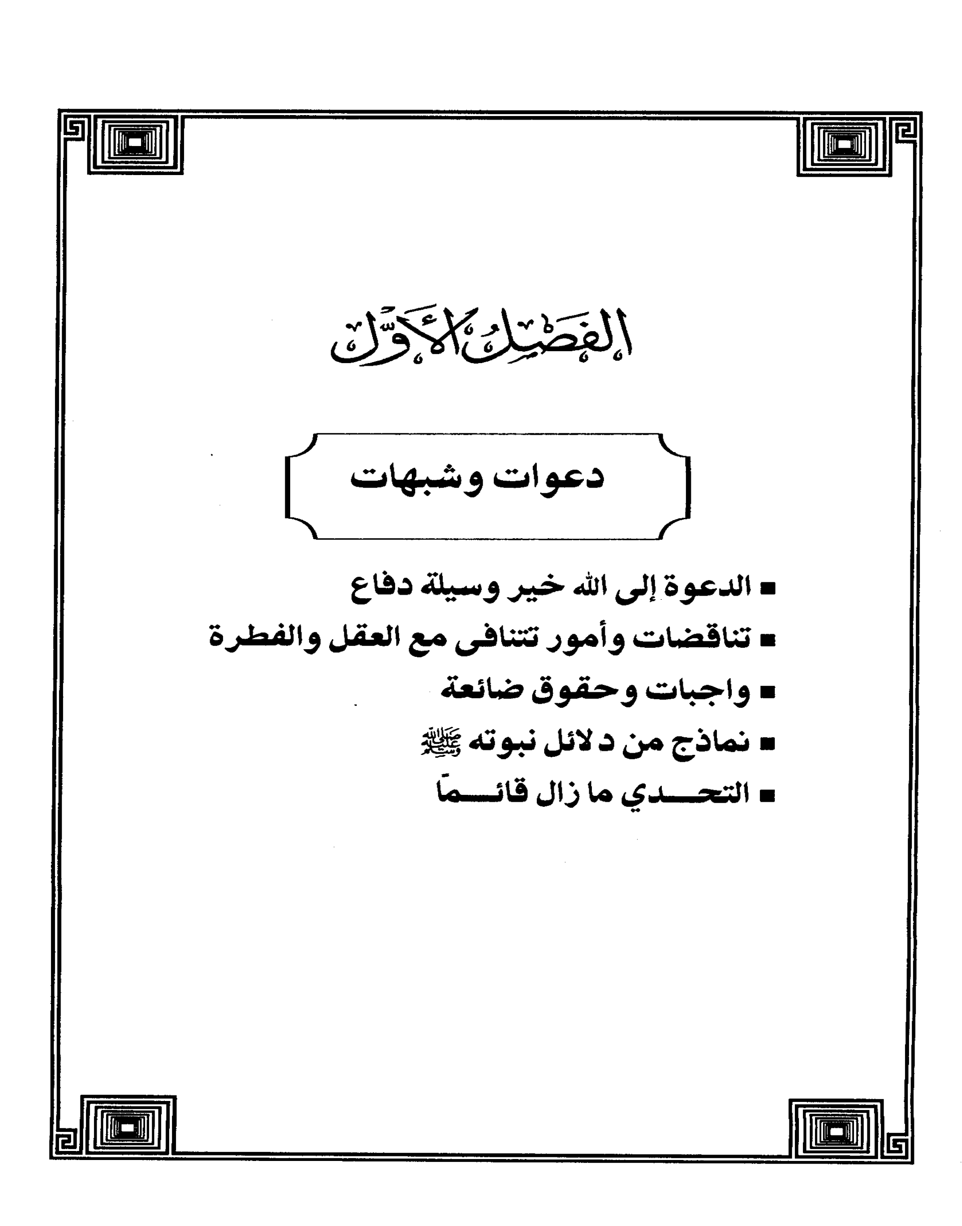
الموضوع تتعلق بالواقع الذي تعيشه الأمة ، الأمر الذي دعاني للاسترسال فيه حتى وصل إلى عشرة خطب ، ولما كان أسلوب الخطابة يختلف عن أسلوب الكتابه ، فقد استدعى مراجعة الخطب مع شيء من الحذف والإضافة ، ويبقى المعنى الكبير الذي ينبغي علينا أن ننشغل به ، وهو : هل نحن فعلاً في مرحلة التيه ـ حسيًّا كان أو معنويًا ـ ؟ ، وما الذي أوصلنا إلى ذلك ؟ ، وما هو سبيل الخروج من حياة التيه؟ ، وعسى أن يكون الكتاب إجابة على هذه التساؤلات الهامة ، وما فيه من توفيق وتسديد فمن الله ، وعلى الأقل يكون أشبه بموارية لا تستبعد أن يأتي اليوم الذي يجد من يفتحه بفضل الله على مصراعيه ويخرج بنفسه وبالأمة من حياة التيه ، التي طال أمدها وما ذلك على الله بعزيز .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

كتبه

سعيد عبد العظيم

يغفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين



الفصل الأول

دعوات وشبهات

- الدعوة إلى الله خير وسيلة دفاع
- تناقضات وأمور تتنافى مع العقل والفطرة
- واجبات وحقوق ضائعة
- نماذج من دلائل نبوته ﷺ
- التحـــدي ما زال قائـــماً

الفصل الأول

دعـــوات وشبهـــات

إن هذه الأمة مستهدفة ، ليس فقط في خيراتها ؛ في أرضها وترابها بل هي مستهدفة في عقيدتها ، حملات تلو حملات ، بعضها قد ينتسب لهذا الدين ، لهذه المِلَّة والبعض ينتسب لِمِلَلٍ أخرى ؛ والواجب علينا أن نأخذ حذرنا، وأن نكون على بصيرة من أمرنا وأمر الناس .

البعض يريد نشر الصوفية ، أو الشيعية ، البعض يريد نشر الديمقراطية ، وفريقًا آخر يريد تنصير البلاد والعباد « حملات التبشير » ، وفريق من جلدتنا ويتكلم بلساننا لا يحسن التفريق بين أن نترك هؤلاء وما يدينون ـ لا نتدخل في عقائدهم طالما سَتَرُوها عن البلاد والعباد ـ وبين أن يُعطوا الحق في نشرها وفي الترويج لها ، وهذا هو الذي لا يجوز في دين الله ـ تبارك وتعالى ـ لا يُسمح لهم بنشر كتاب في أسواق المسلمين ولا بإظهار صليب ولا بدق ناقوص ، ولم لا ، وإلا فنحن لابد وأن نفرق بين تهنئتهم لنا وبين عدم جواز تهنأتنا لهم ، هم مهنؤنا بحقٍ ، ونحن لا نهنأ بالباطل ، لا نهنأ بموت الإله ، إذ هذا يتنافى مع العقل ومع الفطرة ، يتنافى مع الشريعة المنزَّلة ، لابد من تفريق بين حرية نشر الحق وبين حرية نشر الكفر والباطل والضلال ، فالذي يُسمح بنشره ما جاء في كتاب الله وفي سُنَّة رسوله ﷺ ، ولا يستويان، بين أن أنشر أنا حقي وبين أن أمنع المُبطل من نشر باطله ، والمسألة واضحة وبيِّنه ، لابد من الأخذ على أيدي هؤلاء العابثين الذين يريدون نشر الأضاليل ، نشر الكفريات ، لابد من بصيرة في الأمر كله ، وإلا فالناظر حتى في الواقع سيجد أن هؤلاء ما يسمحون للمسلم بالنزول على

شريعته ، حتى في الأحوال الشخصية ، بينما هم يرفضون تطبيق شرع الله ـ جل علا ـ الذي أمرنا بالعمل بمقتضاه والنزول على أحكامه ﴿ **إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** (٤٠) ﴾ [يوسف : ٤٠] .

﴿ **وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ** ﴾ [المائدة : ٤٩] .

فإنما يعترضون ، هم بذلك يصادمون الكتاب والسُّنَّة ، يصادمون عقائد المسلمين ويصادمون أيضًا ما هو واقع ، وإلا فلا شريعة عندهم يحتكمون إليها ، هم يقبلون أي شريعة ، هذا هو شأنهم ، عندهم بعض الأحكام وعندهم بعض الأخلاقيات والشريعة المستقلة هي التوراة ، وشريعة الإسلام ناسخة لسائر الشرائع والواجب علينا أن ننزل على ما جاء في كتاب ربنا وفي سُنَّة نبينا ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وأن نتعرف على السُنن الشرعية والسُنن الكونية ، وإلا فالناظر في هذه البقاع وفي غيرها سيجد فروقًا كثيرة ، بل انظر حتى لبناء المساجد ، ما يسمحون في أوروبا ببناء المساجد ، وهذا في كثير من البلدان الأوروبية ، وإن سمحوا ببنائها فلا يسمحون برفع الأذان فيها ، على الرغم من ادعاءات الحرية والمحافظة على حقوق الأقليَّات ، والمحافظة على حقوق الإنسان، ما يسمحون ببناء مسجد في كثير من البلدان الأوروبية ، تجد هذا في اليونان وفي إيطاليا وفي غير ذلك من البلدان الأوروبية .

وتجد من بنى مبنى ، أو اتخذ حجرة في داره ، إذا ما أذن فليكن ذلك داخل المسجد دون أن يُرفع أذان ، هذا هو شأنهم ، وعلى الرغم من ذلك تجد الأصوات العالية التي تُبَث هنا وهناك ، وقد يكون بعض الشباب مرتعًا لمثل هذه الأفكار ولمثل حملات التبشير والتنصير ، الأمر الذي يجب علينا معه أن نكون على حذر ، وأن تكون على بصيرة ، وإلا فالعقيدة هي أغلى ما يمتلكه العبد ، يفقد الإنسان روحه ولا يفقد دينه ، بل لا تصلح الحياة بلا دين ، بل لا تسمى حياةً ،

لا تصلح الدنيا عوضًا عن معنى من معاني الآخرة ، ولذلك كان لابد من حيطة وأنت إن لم تدعوا صرت محلاً لدعوات الآخرين ، ومن هنا قال من قال : الهجوم خير وسيلة للدفاع .

الدعــوة إلى الله خير وسيلة دفــاع :

كان الواجب عليك أن تُبَلغَ حقك ، أما أن تصير مرتع للمواقع التي تُنشر، والبث الذي يدور هنا وهناك ؛ تسمع الشبهة ولا تستطيع الرد عليها . كان الواجب عليك أن تبلغ أنت دين ربك - تبارك وتعالى - إن لم يسعُك الأمر فالواجب عليك أن تصون نفسك ، لا داعي للسماعَات المغرضة ، لا داعي للقراءات طالما تعيش بلا زاد وبلا بصيرة ، النَّبيّ ﷺ عندما وجد في يد عمر بن الخطاب رضي الله عنه صحيفة من التوراة ، غضب ﷺ وقال : « **أهذا وأنا حيٌّ بين أظهُرِكُم؟! ، لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، والله لو كان موسى حيًّا لما حُلَ له إلا أن يتبعني** » (١) .

فلا تعرض نفسك لفتنة،طالما لا قدرة لك ولا طاقة لك على تفنيد الشبهات . تسمع شبهات كتعدد الزوجات ... لماذا تقطع يد السارق ... لماذا يُرجم الزاني ...وكأن هذه الأحكام الشرعية تتنافى مع الحضارة الإنسانية ومع التطور والرقي .

لماذا نُعطي الذَّكَر مِثْلَ حظ الأُنثيين؟! ، الإجابات كثيرة وعديدة ، قد يعجزك الأمر ، وقد لا تستطيع أنت تفنيد هذه الشبهات ، فكان لابد من صيانة النفس ولابد أن ترتقي ، تتعلم ما جاء في كتاب ربك وفي سُنَّة نبيك ﷺ حتى تبلغ الحق للخلق ، حتى تأخذ بزمام المبادرة .

---

(١) مسند الإمام أحمد ، الدارمي ، وحسنه الألباني « إرواء الغليل » .

النَّبيّ ﷺ وجَّه الدعوة لهرقل عظيم الروم ، قال له : « **أسْلِمْ تَسْلَم ، يُؤْتِكَ الله أجـرَكَ مَـرتَيْن ، فـإن توليـت فـإنما عليـك إثـم الأريسـيين** » (١) ، أي إثم الفلاحين الأكَّارين ، أي الذين يحرثون الأرض .

وبعث إلى هرقل بقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤)** ﴾ [آل عمران : ٦٤] .

ولما عاد الغلام اليهودي قال له : « **أسلم** » ، فقال له أبوه : أطع أبا القاسم، أسلم الغلام وفاضت روحه من ساعته ، فقال النَّبيّ ﷺ : « **الحمد لله الذي أنقذه من النار** » (٢) .

أتعجز أنت عن إبلاغ الحق للخلق ؟ ، عندك دعوة متينة ـ ولله الحمد والمنَّة ـ دعوة ملئها البصيرة ، دعوة هي أوضح من الشمس في رابعة النهار ، أتعجز أنت عن أن تبلغ الحق للخلق .

تقول : ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩) وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨٠)** ﴾ [البقرة : ٧٩-٨٠] .

وقال تعالى :﴿ **اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١)** ﴾ [التوبة : ٣١] .

تقول لهم : آمنوا خيرًا لكم ، أنتم دعاة خيرٍ تحبون الخير للخلق كافة ،

---

(١) البخاري ومسلم ، أصحاب السُّنن .

(٢) البخاري ، أبو داود ، مسند الإمام أحمد .

ولذلك كان لابد من دعايات بدعاية الإسلام، تقول: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ [آل عمران: ١٩] هذه هي الدعوة، وهذا هو الدين الذي رضيه لنا سبحانه وتعالى دينًا، هذا هو الدين الذي بلغه آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ورسولنا ﷺ.

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥)﴾ [آل عمران: ٨٥].

تناقضات وأمور تتنافى مع العقل ومع الفطرة :

كان الواجب علينا أن نبلغ الحق للخلق، وإلا فهؤلاء عندهم غلو؛ يقال لهم: ﴿لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

هذا هو شأنهم؛ كتبوا الكتاب بأيديهم، سمحوا للأحبار والرهبان، بتحليل ما حرم الله وبتحريم ما أحل الله، ولذلك لما دخل عدي بن حاتم على رسول الله ﷺ فسمعه يقرأ ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]. قال: ما عبدناهم، قال: « **ألم يُحلوا لكم الحرام، ويحرموا عليكم الحلال فأطعتموهم، فتلك عبادتكم إياهم** » (١).

وها هم يعبدون الصليب؛ شارة وجدت بعد ذلك، استحدثها لهم بولس، استحدثها لهم قسطنطين.

أين كانوا قبل وجود هذه الشارة؟! ، كيف كان شأنهم وحالهم ؟ ، يعبدون أو يُقَبِّلُون صليبًا يعلقونه على الصدور وهنا وهناك وقد صُلبَ عليه معبودهم ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ﴾ [النساء: ١٥٧].

---

(١) انفرد به الترمذي، وحسنه الألباني - رحمه الله -.

ولكن هذا هو معتقدهم ، الإنسان لا يطيق النظر في هالة جرح بها ولده ، فكيف بالصليب الذي علق عليه المعبود ، أيُقَبَّل ؟! .

تناقضات وأمور تتنافى مع العقل ومع الفطرة ، ما اجتمعوا اجتماعًا إلا وتلاعنوا فيه ، ولذلك صار كلهم لاعن وكلهم ملعون ، كتبوا الأناجيل بأيديهم وكلها تناقضات ، كلها تضاربات ، وإذا ما اجتمع منهم عشرة قاموا على أحد عشر مذهبًا ، هذا هو شأنهم لشدة اختلافهم في معبودهم وفي دينهم ، هذا هو شأنهم وحالهم .

كيف يعتقد الإنسان أن إلهًا يخرج من فرج امرأة ؟!! ، ويأكل ويشرب ويتغوط ويبول ، يُمكِّن أعدائه من نفسه حتى يصلبونه على الخشب ويلبسونه أكليل الغار ، ويبصقون في وجهه ، يصفعونه على قفاه ، يقولون له يا بن كذا، كما هو مكتوبٌ في الإنجيل ، أي معتقداتٍ هذه ؟!! ، نحمد الله تبارك وتعالى على العافية .

تناقضات وتضاربات ورب العزة - جل وعلا - يبين في محكم كتابه كيف يكون الحال والشأن ، إذا ما جمع سبحانه الأولين والآخرين ، وقيل لنبي الله عيسى عليه السلام : ﴿ **أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ** ﴾ يقول عيسى عليه السلام : ﴿ **قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧)** ﴾ [المائدة: ١١٦ - ١١٧] .

يقوم هذا المقام شهادة على قومه ، يتبرأ مما فعلوه ومن هذا الغلو الذي صنعوه معه ، رفعوه إلى مصافي الربوبية وإلى مصافي الألوهية ، وإن كان خلاصًا

أو فداءً فالرب قدير ، ما يمكن أعداءه من نفسه ، ما ينزل من كرسي عرشه ليدخل في بطن امرأة ، يمكث فيها تسعة أشهر حتى يزعمون بعد ذلك أنه الله ، أو هو ابن الله ، أو هو ثالث ثلاثة ، ويرفعون مريم أيضًا إلى مصافي الألوهية وإلى مصافي الربوبية ، غلو لابد من التنزه عنه .

دعوات ساقطة ، وكل إنسان مطالب بأن يفتش في نفسه، وأن يبحث عن أصله وأصل معتقده ، أعقائدة مسروقة،مغشوشة من عقائد الهنود في « بوذا » ، وعقائد الهنود في « كريشنا » ، ولذلك يقول سبحانه : ﴿**يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ**﴾ [التوبة : ٣٠]، أكثر من أربعين وجه شبه ، وتطابق بين عقيدة النصارى في عيسى وبين عقيدة الهنود في « بوذا » .

ومن المعلوم أن عقيدة الهنود في « بوذا » وفي « كريشنا » أسبق من عقيدة النصارى في عيسى ، ولذلك كان الواجب عليهم أن يبحثوا ، أن يفتشوا . . . مِنْ مَنْ أخذوا عقائدهم ؟! ، والمسيح لم يقل لهم أنا الله ولا ابن الله ، إذًا بالحتم واللزوم أخذوا ذلك من غيرهم ، ألَّفوه من بنات عقولهم وما أخذوا معتقدهم إلا من عقيدة الهنود في « بوذا » .

ولذلك يقول سبحانه : ﴿**يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ**﴾ [التوبة : ٣٠] .

كيف يوصف بالتقديس، وما غُيِّر وما بُدِل ، وما كتب بالأيدي تحريفًا وتبديلاً، كيف نصفه بالتقديس ، والتقديس معناه: التطهير، ومعناه : التنزيه، وهم يعترفون ويقرون بتبديل آيات الكتاب الذي بين أيديهم ، والحديث في هذا المقام يطول .

واجبات وحقوق ضائعة :

الواجب علينا أن نكون على بصيرة من أمرنا وأمر الناس ، أنت صاحب دعوة تتوافق مع العقل ومع الفطرة ، تتوافق مع الكتاب المُنَزل ومع ما بُعث به الرسل ، إن أعجزك الأمر فلابد أن تنطق بلسان حالك ومقالك إن كان النَّبيّ ﷺ قد قال ، فقد صدق ، فوالله إني لأصدقه في أكثر من ذلك ؛ أصدقه في خبر السماء ، تأسيًا بالصدِّيق رضي الله عنه .

تُعرض عليك الشبهة في الموقع أو على الشبكة العنكبوتية أو في كتاب أو في مطوية توزع ، أو في إعلان تشاهده هنا أو هناك ، لابد من رسوخ ، حتى وإن أعجزك الرد ، لابد من ردود مجملة لابد وأن نكون على بصيرة ، قل هذا هو النَّبيّ ﷺ ، والنَّبيّ حق والإسلام حق والموت حق والساعة حق ، ورب العزة جل وعلا يبعث من في القبور ، تيقنت أنا خبر الصادق المصدوق ، لست بأقل أبداً مما قاله هرقل عندما طرح أسألته العشرة على أبي سفيان ، وكان في تجارة بالشام وأوقف القوم خلفه وكان من جملة هذه الأسئلة :

أكنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول مقالته هذه ؟ .

فقال له أبو سفيان ـ وكان على الكفر يومئذٍ ـ قال له : لا .

فقال هرقل : ما كان ليَذَرَ الكذب على الناس ويكذب على الله ـ تبارك وتعالى ـ كانوا يلقبونه بالصادق الأمين ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ رآه عبد الله بن سلام وكان حبراً من أحبار يهود ، يقول : فرأيت وجهه ليس بوجه كذاب ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وكأن المعاني ترتسم على الوجوه ، ترتسم في الكلمات وفي الأفعال، ترك الكذب على الناس، أفيكذب على الله ـ تبارك

وتعالى ـ هو الصادق الأمين ، أجود الناس ، أشجع الناس ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ .

وجهه كورقة مصحف ؛ فإن أعجزك الأمر فقل لنفسك : لن أتعدى ، لن أتخطى ، بل أنا أنا .

عندما أسمع الطبيب الجراح يجري العملية الجراحية وقد يُقطع هذا العضو ويحدث الألم هنًّا ، أقول طبيب جراح متخصص حاز من الشهادات كذا وكذا، إذًا لا داعي لسؤاله ،حتى إن أجاب ولم تعلم هوية الإجابة ، أنت الذي تسلم للمهندس الفلاني وللاقتصاد العالمي، أنت الذي تسلم للطبيب الجراح ؛ تسلم له نفسك ، إذا كان هذا هو شأنك مع هذه النماذج وهذه الأمثلة ، فكيف يكون شأني ، إن لم أعلم الرد على شبهة تعدد الزوجات ، أو شبهة قطع يد السارق .

تقول : هذا هو الحق هذا هو الخير للبلاد والعباد حتى لو خالف ذلك من بأقطارها ﴿ **الٓمٓ (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣)** ﴾ .

[العنكبوت : ١-٣] .

كان لابد من تسليمٍ لأمر الله ، ولا داعي لوضع العقول قبل الشريعة العقل متولٍ ، ولي الرسول ثم عزل نفسه ، العقل دابة توصلك لقصر السلطان ولا تتدخل بها عليه ، ولا يُظن معارضة بين نقلٍ صحيح ، وبين عقلٍ صريح ، وإذا ورد شرع الله بطل نهر معقل ، فهل من يعقل ؟!! .

﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥)** ﴾[النساء : ٦٥] .

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا (٣٦) ﴾ [الأحزاب : ٣٦] .

لابد من بصيرة ، لابد من يقين ، أن نحيا حياة اليقين أن نكون على بصيرة من أمرنا وأمر الناس ، تعلمنا الكثير ، من حاز الابتدائية ، والثاني الإعدادية ، والعاشر يقول : تخرجت من الجامعة ، أين البصيرة في دين الله ، أين حمل همّ الدعوة ، إبلاغ الحق للخلق « **الدال على الخير كفاعله** » (١) ، « **لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرًا من حُمر النَّعم** » (٢) ، العيب كل العيب ، أن تصير مرتع للشبهات، أن نصير مرتع لحيل الأعداء والبعض قد ينضاف إلى خندق الأعداء ، وهذه الأُمَّة وقت ضعفها تظهر عوامل الكُفْر ، وإذا ما قوى شأنها وشوكتها رأيت النفاق يظهر ، والواجب علينا أن نكون على بصيرة .

« **يوشك أن تتداعى عليكم الأمم ،كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها** » ، قالوا : أوَمن قلة نحن يومئذٍ يا رسول الله، قال : « **بل أنتم يومئذٍ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ،ولينزعن الله المهابة من قلوب أعدائكم وليقذفن في قلوبكم الوهن** » قالوا :وما الوهن يارسول الله ، قال : « **حُبُّ الدُّنيا وكراهية الموت** » (٣) .

ولابد من علواً في الحياة وعند الممات ، ولا سبيل إلى العز الحقيقي إلا بالتمسك بكتاب الله وبسُنَّة رسول الله ﷺ ، أنت صاحب دعوة ، أنت توجهه الدعوة إلى الخلق أجمعين .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١) ﴾ [الفرقان : ١] .

---

(١) الترمذي وأحمد ، وحسنه الألباني ـ رحمه الله ـ .
(٢) البخاري ومسلم ، وأحمد وأبي داود .
(٣) أبي داود وأحمد ، وصححه الألباني .

﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨) ﴾ [ص :٨٧-٨٨] .

محتاجين لأن نرتفع لمستوى هذه الدعوة،أن نعتز بدين الله ـ تبارك وتعالى ـ ، تهتز الرجال ولا تهتز معاني العقيدة في قلوبنا ، تتزلزل الدنيا ولا تتزلزل معاني الإيمان في نفوسنا ، لابد من بصيرة ، تعلموا ما جاء في كتاب الله ، وفي سُنَّة رسول الله ﷺ حتى نبلغ الحق للخلق .

محتاجين لدعوة أهل الكتاب ولدعوة غيرهم ، ونقول لهم : أسلموا وجوهكم لله من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله .

لسان الحال يقول : الزم غرزه فإنه على الحق .

« جاء عمر بن الخطاب لأبي بكر رضي الله عنهما يوم الحديبية ، وقد استشكل عليه الأمر ، قال : عَلامَ نعطي الدنية في ديننا ، أولسنا على الحق ، أليس رسول الله حقًا ، فما كان من أبي بكر الصديق ، ثاني اثنين إذ هما في الغار ، إلا أن قال لعمر : الزم غرزه ، فإنه على الحق » [١] .

لابد من حياة على ما جاء في الكتاب والسُّنَّة ، بلا تعدي ولا تخطي سندعوا أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، نحن أصحاب دعوة حقًا ، سنبلغهم أمر الله ـ جل وعلا ـ سندعوهم بدعاية الإسلام ، وإلا فما قاله النَّبيّ ﷺ هو الحق.

ونحن عندما أسلمنا رقابنا لهذا الدين كانت هي أعظم وأجمل نعمة امتن بها سبحانه علينا ، كل ما قاله الصادق المصدوق هو الحق وهو الصدق ، بدلالة ما عند أهل الكتاب من طالع كتبهم، سيجد أن البشارات كثيرة ،وتزيد على المائة وخمسين بشارة، فيها هيأته ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ دعوته ،كيف أنه المبشر « البشير النذير» كيف أنه سيبعث بقضيب الأدد ، وغير ذلك من المعاني،

---

(١) البخاري والنسائي ، وأبو داود وأحمد .

سيبعث في جبال « فاران » عندهم وبدلالة ما عندهم ستجد البشارة برسول الله ﷺ وبدين الله - جل وعلا - : ﴿ **وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ** ﴾ .

[الصف : ٦] .

و« فارقليد » أو عيد « فارقليد » وهو الذي يحيد بأمته عن النار يوم القيامة، بشارات كثيرة وعديدة كلها تدعوهم لإسلام الوجه لله جل وعلا ، بل نحن لا نعرف نبوة نبيًا ولا صدق رسالة إلا بالرجوع إلى دين الله - تبارك وتعالى - ولا سند متصل عندهم ، هذا هو شأن القوم ؛ ما يعرفون اتصال السند ، واتصال السند الوحيد في المنع من الطلاق وفي طريقه كذاب ، أي أنه لا يُعمل به ، والإسناد من الدين ، كما قال ابن المبارك - رحمة الله عليه - ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء ، فلا تعرف نبوة موسى ولا عيسى إلا بالرجوع لدين الله ، إلا بالرجوع لكتاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ ، وهؤلاء إذا كانوا يؤمنون بكتبهم يؤمنون ويصدقون بأنبيائهم ، فالواجب عليهم أن يسلموا وجوههم لله ، هذا إن كانوا يؤمنون بالتوراة ويؤمنون بالأنجيل ؛ لأن البشارة برسول الله ﷺ ثابتة عندهم ، يعلمونه﴿ **يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ** ﴾ [البقرة : ١٤٦] - صلوات الله وسلامه عليه - فإن كذبوا بدعوته وإن لم يسلموا وجوههم لله دل ذلك على أنهم يكذبون بكتبهم .

ولذلك روى الإمام مسلم - رحمة الله عليه - حديث النَّبيّ ﷺ : « **والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأُمَّة ، يهودي ولا نصراني ، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسلت به ، إلا كان من أصحاب النَّار** » (١) .

قامت عليهم الحجة الرسالية بأنبيائهم ومرسليهم ، وكان كل نبي يُبعث

(١) مسلم وأحمد .

للناس خاصة و « **بعثتُ للناس بعامة** » (١) .

وهذا أيضًا من جملة ما اختص به - صلوات الله وسلامه عليه - بُعث للأحمر والأصفر ، بعث للأبيض والأسود ، تعدت رسالته الإنس إلى الجن : ﴿ **وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١)** ﴾ [الأحقاف : ٢٩-٣١] .

يُقال ذلك لليهود ويُقال ذلك للنصارى ﴿ **أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ** ﴾ ، أسلموا وجوهكم لله من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله .

وإلا فالمسيح الذي يزعمون الإيمان به سينزل في آخر الزمان ، حكمًا عدلاً مقسطًا ، يكسر الصليب ، ويضع الجزية ويحكم بشريعة الإسلام ويقتل الخنزير.

كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فإمامكم منكم ، ينزل في آخر الزمان ، علامة من علامات الساعة العشر الكبرى ﴿ **وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣)** ﴾ [مريم : ٣٣] ، لم يمت بعد ، هو في السماء الثانية ، ينتظر الإذن بالنزول فينزل ويحكم بشريعة الإسلام ويموت بالمدينة ويُدفن بها وهو صحابي من صحابة رسول الله ﷺ .

محتاجين إلى أن ننهض بدعوتنا ، نرتفع إلى مستواها ، نُبَلغَ الحق للخلق ، نكون على بصيرة من أمرنا وأمر الناس ومعرفة الشبهة والرد عليها ، دين ندين به لله ، وواجب من جملة الواجبات الشرعية ، تعلمنا الكثير والكثير ، فالواجب علينا أن نرتفع لمستوى هذه الدعوة وكلكم صاحب لهذه الدعوة وكلكم أهل

(١) أحمد وصححه العلامة أحمد شاكر .

لأن ينهض ، أنت قبل أن تكون طبيبًا أو مهندسًا ، عاملاً وموظفًا ، أنت مسلم قبل ذلك وبعد ذلك، ودين الله هو أغلى ما نملك ، فكان لابد من الزود عن حمى هذه الشريعة ولنا في رسولنا ﷺ أُسوة حسنة وقدوة طيبة : ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً** (٢١) ﴾ [الأحزاب : ٢١] .

نماذج من دلائل نبوته ﷺ :

أخبرنا الصادق المصدوق ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بأخبار مستقبلية وبأمور غيبية ، جاءت مثل فلق الصبح ، أخبرنا بأن الحسن وهو ابن فاطمة ، سيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين ، قال : « **إن ابني هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين** » (١) .

أخبر ﷺ بفتح القسطنطينية وبفتح رومية ، أخبر بأن مُلك كسرى وقصور كسرى ستفتح ؛ وقال ﷺ : « **إذا هلك كسرى فلا كسرى بعد ، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، والذي نفسي بيده ، لتنفقنَّ كنوزهما في سبيل الله تبارك وتعالى** » (٢) ، أخبر ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بفئتين من البشر كلاهما على ضلالة وعلى انحراف ، قال : « **صنفان من أهل النار لم أرهما ، رجال بأيديهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات ، مميلات مائلات ، رؤسهن كأسنمة البخت المائلة** » (٣) ، قال ذلك في وقت طهر في وقت عفاف ، كانت لربما خرجت المرأة تسأل عن صغيرها وهي منتقبة،

---

(١) البخاري والترمذي ، النسائي وأبو داود ، وأحمد واللفظ من مجموعهم .
(٢) البخاري ومسلم وأحمد ، واللفظ لأحمد .
(٣) مسلم وأحمد ومالك واللفظ لمسلم .

يخرجن إلى الأسواق وإلى الأسفار منتقبات ، كيف ولو رأى النَّبيّ ﷺ النساء على شواطئ البحر ؟! .

قال في وقت طهر وعفاف : «نساء كاسيات عاريات على رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة» ، قال ﷺ : « **الفتنة ها هنا من حيث يطلع قرن الشيطان** » [١]، وأشار بيده ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إلى المشرق ؛ وجاء من العراق وما والاها ، كل الفتن تقريبًا ، الخوارج والشيعة والمزدُقية والمانوية والبهائية والتتار ، وجاء أيضًا الإلحاد من هذه الجهة « **الفتنة ها هنا من حيث يطلع قرن الشيطان** » ، ذكر جذور الخوارج ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ،وقال في حديث ذي الخويصرة : « **سيخرج من ظهري هذا قوم حداثي الأسنان ، سفهاء الأحلام ، يقولون من حديث خير البرية يتركون أهل الأوثان ويقتلون أهل الإسلام** » [٢] .

وحدث ما أخبر عنه الصادق المصدوق ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أخبر أُمَّته عن طاعون عمواس ؛ مات فيه عشرون ألف نفس في هذا الطاعون ، ومات فيه معاذ بن جبل ، ومات فيه أبو عبيدة وغيرهما ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ ، أخبر ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ عن مشاركة المرأة لزوجها في التجارة ، أن يمر الرجل بقبر الرجل فيقول : يا ليتني مكانه ؛ أخبر ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ عن فتن تموج مثل موج البحر ، يصبح فيها المرء مؤمنًا ويمسي كافرًا ، يبيع دينه بعرض من الدنيا ، أخبر عن تشبب المشيخه ، حواصل الحمام ، اطلاق اللحية على مثل هذه الهيئة ، أخبر بها ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ، أخبر عن انتفاخ الأهلة ؛ أن يرى القمر لليلتين وهو لليلة واحدة ، أخبر عن قتال الترك ، وعن قتال الهند ،

(١) البخاري ومسلم .
(٢) البخاري ومسلم واللفظ للبخاري ـ رحمه الله ـ .

وعن قتال الروم ، عن تطاول الناس في البنيان ، أخبر عن تقارب الزمان ، أخبر عن أمور كثيرة وعديدة كلها دالة على نبوته ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ .

التحـــدي مـــازال قائمـــاً !! :

ودلائل النبوة ما تقتصر على المعجزات ، هي أكثر وأعظم من ذلك بكثير ، ومعجزته الباقية ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ .

هذا الكتاب الذي بين أيدينا ، وإلا فأين معجزات الأنبياء السابقين ؟! ، لا وجود لها ؛ انتهت بانتهائهم ، أما معجزة القرآن وهي أعظم معجزاته ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فما زال باقيًا ، والتحدي ما زال قائمًا : ﴿ **فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ**(٢٤) ﴾ [البقرة : ٢٤] .

وقيل لهم : ﴿ **فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ** (٣٤) ﴾ [الطور : ٢٤] .

عجزت البشرية على الرغم من تضافر الجهود ، على الرغم من حرصهم على مواجهة التحدي ، عجزوا عن مثل ذلك ، وبعجزهم ثبت الإعجاز لكتاب الله ، وما من يوم يمر علينا إلا وتجد المؤتمرات ؛ هذا المؤتمر « أهل الكلام على الإعجاز الطبي » ، وهذا « أهل الكلام على الإعجاز الفلكي » ، وهذا المؤتمر للكلام على إعجاز يتعلق بعلوم البحار أو بالزراعة أو بعلم الأجنة ، أوبغير ذلك ؛ إعجاز علمي ، إعجاز حكمي تشريعي ، حاولت أمريكا منع الخمر فما استطاعوا ، أنفقوا الملايين ، حبسوا المئات ، طبعوا مليارات الأوراق ، وفي النهاية فشل الأمر.

وأنت عندما تنظر في قوله تعالى : ﴿ **فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ** ﴾ [المائدة : ٩١] ، ما كان منهم إلا أن قالوا : انتهينا ربنا ، انتهينا ربنا ، جيل تربى على يد النَّبيّ ﷺ ؛ هو بمثابة الإعجاز : دليل من دلائل نبوته ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ، وإلا

فهؤلاء كانوا يعيشون بقلب أشد وأقسى من الحجارة، من الجبال التي تحيط بهم، فصاروا أفزازاً بعدما أسلموا وجوههم لله ـ تبارك وتعالى ـ ، دانت لهم الدنيا بأسرها .

على يد من تربى هؤلاء الأفاضل ؟!! ، ثم الكرامات التي حدثت لهم ، هي امتداد لمعجزة النَّبيّ ﷺ .

عمر رضي الله عنه يقول : يا سارية الجبل ، انظروا ؛ وسفينه رضي الله عنه يأخذ بأُذن الأسد، يدله الأسد على الطريق حتى يسيرون، هذه المعجزات التي حدثت لأبي مسلم؛ رجلٌ صنع الله ـ تعالى ـ به مثل صنيعه بإبراهيم ، كانت النار برداً وسلاماً عليه ، هذه النار التي أضرمها له الأسود العنزي باليمن و « عبد الله بن ثوم » رجلٌ مجاب الدعوة ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ لما تنظر أنت في إجابة دعاء « سعيد بن زيد » و « سعد بن أبي وقاص » ، كلهم قمة ـ رضوان الله عليهم أجمعين » .

« لا تسبوا أصحابي ، فوالذي نفس محمد بيده لو أنفق أحدكم مثل أُحد ذهب لم يبلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه » (١) .

إجابة دعوات النَّبيّ ﷺ دعاء لأنس رضي الله عنه بطول العمر وبسعة الرزق ؛ كثر ولده ، وزاد ماله وتجاوز المائة ـ رضوان الله عليه ـ ببركة دعاء النَّبي ﷺ ، دعائه للحبر البحر ، لترجمان القرآن ، لابن عباس : **« اللهم فقّهه في الدين وعلمه التأويل»** (٢)،دعوات مستجابات لرسول الله دالة على نبوته ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ، أخلاقه وخُلُقه ، هيأته ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ، تدل على نبوته .

دلائل النبوة كثيرة وعديدة ، مما هو موجود بأيدي أهل الكتاب، دال على

---

(١) البخاري ومسلم وأصحاب السُنن .

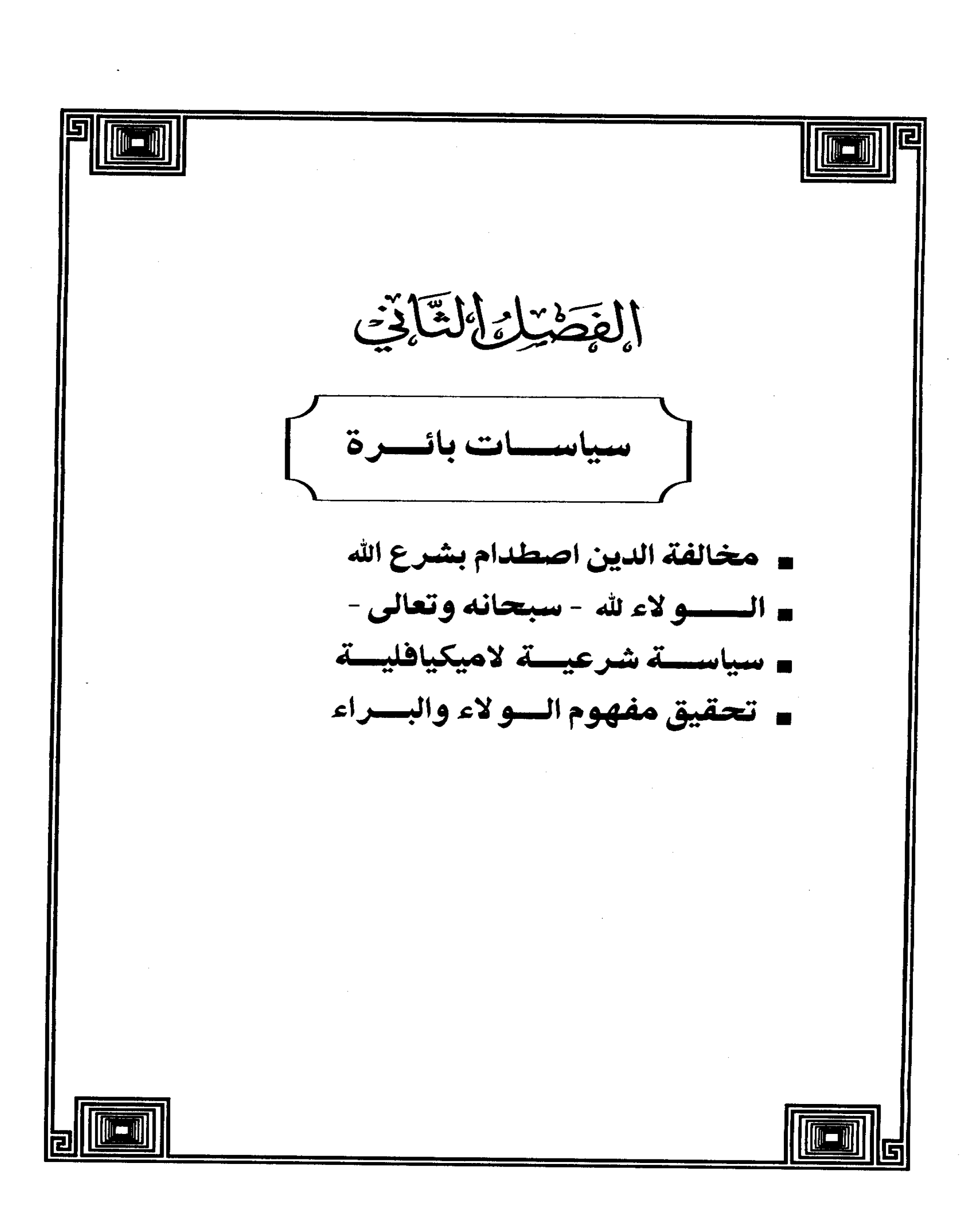
(٢) البخاري ومسلم واللفظ لأحمد .

نبوته ، ما من معجزة أعطاها ربنا لنبي من الأنبياء إلا أعطى مثلها لرسول الله ﷺ ولذلك عندما ترى انبهار الدنيا بشخص رسول الله ﷺ ، وينطق الأعداء بأن العظماء مائة ، أعظمهم رسول الله ﷺ ، هو سيد ولد آدم ولا فخر ، وإن كنا نرد حتى ما جاء في الكتاب لكونه آخر الأنبياء والمرسلين .

هذه الأُمَّة هي أُمَّة عمل وانصاف لا نقبل منه ولا من غيره أن يقدم مخترع علم المصباح، أو مكتشف نظرية النسبيه على الأنبياء والمرسلين ، خير البشر هو رسولنا ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ، يتلوه بقية أولو العزم من الرسل : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ، ثم بقيه المرسلين ثم بقية النبيين ، ثم أبو بكر فعمر فعثمان فعليّ فسائر العشرة المبشرون بالجنة ، كل صحابي أفضل ممن جاء بعده ، دين متين راسخ ، لابد من يقين في دين الله ـ تبارك وتعالى ـ ولابد من رسوخ ، ليس عندنا ما نتاورى به خجلاً ، عندنا دعوة حقًا ، لابد أن نجهر بواجباتها وبمستحباتها ، نقف وقفه رسوخ حتى وإن اعتراني جهالة فيما يتعلق بشبهة يطرحها فلان أو علان ، فإنه لم يولد أحد من بطن أمه عالمًا ، وإنما العلم بالتعلم وإنما الحلم بالتحلم ومن يتحرى الخير يعطى ومن يتوقى الشر يوقى ، رد الشبهة إلى عالمها ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : ٤٣] .

﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ .
[النساء : ٨٣] .





الفصل الثاني

سياسات بائرة

- مخالفة الدين اصطدام بشرع الله
- الولاء لله - سبحانه وتعالى -
- سياسة شرعية لاميكيافلية
- تحقيق مفهوم الولاء والبراء

الفصل الثاني

سياسات بائرة

عباد الله . . . نسأله - جل في علاه - أن يجعلنا سلمًا لأوليـاءه، حربًا على أعداءه ، نحب بحبه من أحبه ، ونبغض ببغضه من عاداه ، فلابد وأن ندور مع اسلامنا حيث دار ، ولابد من تحقيق مفهومٍ للولاء والبراء ، صلبه وعماده إقامة منهج العبودية ، إقامة دين الله - تبارك وتعالى - ؛ فمن اقترب منه أحببناه ، ومن تباعد عنه أبغضناه .

مخالفة الدين اصطدم بشرع الله :

قام البعض يقول في أعقاب تواطؤ الشيعة مع أعداء الإسلام والمسلمين : « السياسات لا العداوات فيها دائمة ،ولا الصداقات فيها دائمة ، وإنما هي مصالح دائمة » ؛ وكأنها الفزلكة . . . وكأنها الفلسفة ، ولم يدر هؤلاء أن كل إناء بما فيه ينضح ، وأن عداوة الشيعة لأهل السُّنَّة والجماعة ، هي عداوة قديمة ، وكذلك الأمر بالنسبة لأعداء الإسلام والمسلمين ؛ من أهل الكتاب وغيرهم ، عداوتهم أيضًا قديمة للإسلام وأهله ، وكان لابد أن نقرأ الواقع على ضوء ما جاء في كتاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ ،وإلا فالمصطلحات والكلمات الدائمة، وخصوصًا إذا ما شاعت وذاعت، تناقلها القاصي والداني، والرجل والمرأة ،و حسبها البعض أنها سياسة شرعية، والأمر غير كذلك، أو توهم أن الأمر من جملة الواقع الذي يجب على الخلق أن يقروا به ؛ فهذا محتاج لمراجعة نفسه، وفق اسلامه ووفق دينه الذي

يدين به لله ـ تبارك وتعالى ـ وإلا فهناك عداوات دائمة ، وصداقات دائمة ، وكل أمر وكل سياسة تصطدم مع دين الله فهي سياسة بائرة ، لا تمت للسياسة الشرعية بِصِلَة ، وكل مخالف لدين الله لابد أن يصطدم بشرع الله ، ولابد أن يصطدم بالواقع من حوله ، وأمثال هؤلاء الذين يهرفون بما لا يعرفون ، ويعتبرون أنفسهم أنهم استقرأوا الأمور على ما هي عليه ، بحاجة إلى بصيرة حتى لا يتخطوا شرع ربهم ،وتكون المصادمة للعقل وللفطرة ، فتكون المصادمة للشرع الذي أمر سبحانه أن يدينوا به : ﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** (٦٥) ﴾ [النساء : ٦٥] .

كان الواجب عليهم أن تكون سياستهم سياسة شرعية منبثقة من كتاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ ، وإلا فلا بورك في سياسة يصطدم بها أصحابها مع شرع الله ما قيمة دنيا حصيلتها تأتي على حساب الدين ، أن تبيع دينك بدنيا لا بقاء لها ولا فناء ، أن تغير وتبدل فتوالي أعداء الإسلام والمسلمين من أجل مصلحة متوهمة ، قل هذه هي المفسدة بعينها ، الخسارة أكبر وأعظم ؛ أن تخسر أنت دينك حتى وإن حصلت الدنيا بأسرها .

﴿ **قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ** ﴾ [الزمر : ١٥] .

لا موازين عندهم ، طالما اصطدموا بشرع الله ـ تبارك وتعالى ـ حتى وإن فزلكوا قولاً . . . حتى وإن فلسفوه على هذا النحو ، والبعض أشبه بالبغبغاء ؛ ينطق ويكرر ما يسمعه ، وما يدري المسكين أن ما يردده من عبارات ومن مصطلحات تصطدم مع الأساسيات ، تصطدم مع أصول هذا الدين ، يزعم أنه به قد أسلم وجهه لله ـ تبارك وتعالى ـ ، وقال : رضيت بالله ربًا وبالإسلام دينًا

وبمحمد ﷺ نبيًا ، عندما تستقرأ أنت السُنن والسير ستجد الكثير والكثير مما يصطدم بهذه العبارة التي شاعت وزاعت على الألسنة : « لا عداوات دائمة ، ولا صداقات دائمة ، وإنما هي مصالح دائمة » .

هذه سياسات خربة عفنة ، وإلا فقد ضرب لنا سبحانه المثل بإبراهيم والذين معه : ﴿ **إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ** ﴾ [الممتحنة : ٤] .

عداوة دائمة ، طالما كفروا بخالق الأرض والسموات ، لا يسعنا إلا أن نبغض من كفر بالله ـ تبارك وتعالى ـ وبغضنا له بغض دائم حتى يسلم وجهه لله ، لا إلى أن نحقق منه مصلحة مادية تعود على الجيوب ، أي مصلحة هذه وقد خالفنا دين ربنا ، لا بورك في المخالفات ، لا بورك في المعاصي والذنوب ، هي ممحقة للبركة ، فأي مصلحة في التعدي على شرع الله ، أن تصادق أعداء الإسلام والمسلمين .

تحب أعداء الحبيب وتدعي حبًا لـه ما ذاك بالإمكـان

﴿ **وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ** ﴾ [البقرة : ١٢٠] .

وقال : ﴿ **بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ** ﴾ [المائدة : ٥١] .

الــولاء لله - سبحانه وتعالى - :

الواجب على المسلم أن يدور مع اسلامه حيث دار ؛ فمن أسلم وجهه لله أحببناه ، ومن كفر بخالق الأرض والسماوات أبغضناه .

وقال تعالى : ﴿ **لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ** ﴾ [آل عمران : ١١٨] .

وقال تعالى : ﴿ **لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان** ﴾ [التوبة : ٢٣] .

يقول سبحانه :﴿ **ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار** ﴾ [هود : ١١٣] .

فعقد الولاء والبراء إنما هو على دين الله ، لا على المصالح المادية المتوهمة ، لا على التراب الغالي، ولا على الخلوص ولا على كذا وكذا ، وإلا فكل هذه لا تنهض أبداً في ميزان الحق ؛ أبيع أنا ديني بدنيا لا بقاء لها ولا وفاء ؛« **ركعتا الفجر ، خير من الدنيا وما فيها** » [(١)] ، وقال :« **لهم أحب إليَّ من الدنيا جميعًا** » [(٢)] ، أفإن تقدم على ربك مفلسًا بموالاتك لأعداء الإسلام والمسلمين ﴿ **لا تجد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم** ﴾ [المجادلة : ٢٢] .

فلابد من بصيرة في الأمر كله ، وإلا فانظر لما راسل « حاطب بن أبي بلتعه » القرشين يخبرهم بمجيء رسول الله ﷺ لغزوهم ، حتى تكون له يد عندهم ، حتى تكون له الحظوة والمكانة عساه يؤمن أهله ، يؤمن عشيرته ، يؤمن هؤلاء فراسلهم يخبرهم بمجيء رسول الله ﷺ نزلت الآيات البينات :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق** ﴾ [الممتحنة : ١] .

للأسف الشديد الخيانة صارت وكأنها نباهه ، وكأنها نوعٌ من الذكاء والفطنة بل صار بعض الخائنين يتباهى بخيانته ، يعلنها على الملأ يتباهى أنه محقق بها مصلحة البلاد والعباد ، أي مصلحة في الكفر بخالق الأرض والسماوات ، أي مصلحة في التعدي لشرع الله وموالاة أعداء الإسلام والمسلمين ، هناك عداوات

---

(١) ،(٢) مسلم والترمذي وأحمد .

دائمة ، وصداقات دائمة والمصالح التي يتحدثون عنها مصالح متوهمة .

لما كان يوم بني قريظة استشارت يهود « أبا لبابة مروان بن عبد المنذر » ،وكان هناك حلف بينهم وبينهم في الجاهلية ، فأشار إلى رقبته ؛ أنه الذبح ، أي أنكم لو نزلتم على حكم سعد بن معاذ ستقلتون ، إشارة لم يتعدها لم يتخطاها .

يقول : ما قلتها حتى علمت أني خنت الله ورسوله ، ونزل قوله سبحانه : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** (٢٧) ﴾ [الأنفال : ٢٧] .

مجرد إشارة لأعداء الإسلام والمسلمين من يهود ، كانت هذه الإشارة بمثابة خيانة ، فما بالك بمن كانت حياته بالليل والنهار عقد صفقات ، مؤامرات ، خسة ، ودنائة ، مع أعداء الإسلام والمسلمين ، ويزعم بذلك أنها المصلحة ﴿ **أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ** ﴾ [البقرة : ١٢] ، المصلحة الحقيقية في الاستقامة على كتاب الله في أن تصدر عن ما جاء من كتاب ربك وسُنَّة نبيك ﷺ ،وخلاف ذلك ما هي إلا مفاسد، سمى الأشياء بأسمائها ،والأمور كل الأمور على ما عند ربك ﴿ **وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة : ٢١٦] .

﴿ **أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ** ﴾ [الأعراف : ٥٤] ، جل في علاه .

﴿ **أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** (١٤) ﴾ [الملك : ١٤] .

لما فتحت سمرقند ، تظلم أهلها إلى عمر بن عبد العزيز ، وكانت قد فتحت دون إعلام ، دخل القائد : قتيبه بن مسلم ـ رحمة الله عليه ـ فلما اشتكاه أهلها لعمر بن عبد العزيز ، بعث إلى قاضي البلاد يستعمله ، ما الذي حدث؟! ، فأفاده بأنهم دخلوا البلاد دون إعلام ، فما كان من عمر بن عبد العزيز إلا أن

أمرهم بأن يخرجوا من سمرقند مرة ثانية ، وأنت عندما تنظر بالمصالح المادية ، واللوثة التي جرت من الخلق مجرى العروق ، بالسياسات الميكيافيليه ، والغاية عند هؤلاء تبرر الوسيلة ، عندما تنظر بهذا المنظار تقول : ما المانع أن يدخلون سمرقند وبعد ذلك يعبّدون أهلها لله ، هذه النظرة لم يوافق عليها عمر بن عبد العزيز ـ رحمة الله عليه ـ بل أمر الجيش أن يخرج من سمرقند ، وأن يعلموا أهلها وأن يدخلوا بعد ذلك، فلما عملوا ذلك وخرجوا من سمرقند ؛ أسلم أهلها .

عندنا دين ما نصدر إلا عن ما جاء في كتاب الله وفي سُنَّة رسول الله ﷺ ، حتى وإن كان الواقع بخلاف ما تعلم وما تدين ستقول : آمنت بالله وكذبت عيني ، عندما أتوهم أنا أو أرى بخلاف أن المصلحة في كذا ، وأنا أعلم حكم الله ـ جل وعلا ـ في ربويات وغيرها ، من رقصٍ وضياع ، عندما يتوهم البعض أن التسلية ستحدث بالرقصة والأغنية ، أقول لنفسي : خبت وخسرت ، أقول لنفسي : هذا هو التعدي؛ هذا هو الشر والفساد ،وكذلك الأمر في الربويات وغير الربويات حتى وإن سماها البعض فائدة ، لمصلحة تتحقق من ورائها، أُلزم نفسي خُطامها وزمامها ، أقودها بخطامها إلى طاعة الله وأزمها بزمامها عن معصية الله ، هذا هو الواجب علينا كمسلمين أقول : ﴿ **يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ** ﴾ [البقرة : ٢٧٦] ، حتى وإن كثرت القروش ستنمحق البركات حتمًا لا محالة والمسألة مسألة وقت ، والأمور كلها على ما عند ربك ـ تبارك وتعالى ـ فكان لابد من ضبط للمصالح وللمفاسد ، وإلا فهؤلاء الذين يعتبرون الدنيا دائرة على المصالح ، على القرش والدينار ، دائرة على ما يحقق به الإنسان منصبه ، وجاهه أمثال هؤلاء خابوا وخسروا ، أمثال هؤلاء ما يعملون إلا بسياسات هي إلى النفاق أقرب ، لا تمت لدين الله ـ تبارك وتعالى ـ بِصِلَة ، محتاجين لأن نقف وقفة حق ،

لماذا وقف الإمام أحمد - رحمة الله عليه - وقفته هذه ؟! ، لماذا لم يتجارى مع نفسه ومع هواه !! ، عنده بيتٌ وعنده أسرة ، لربما حتى فلسف الأمر ، وقال : تطول بيَّ حياة أبلغ بعدها الحق للخلق ، أوافق المأمون في بدعته ، لم يصنع ذلك كانوا وقَّافين عند حدود ما أنزل الله ، علموا أن الكلمة أمانة وأنه جيل سيُسألون عنه بين يدي الله - تبارك وتعالى - يقول لتلميذه أبو سعيد ؛ لما قال له : يا إمام قلها ، فإن لك عيالاً ، قال : أنظر من الشرفة ، فنظر فإذا بخلق كثير قد اجتمعوا كلهم يريد أن يدون ما سيقوله الإمام ؛ فرجع يصف له المشهد قال : ما يكون لي أن أنجو بنفسي وأضل هؤلاء ، وكان يقول : إذا تكلم العالم تقية والجاهل يجهل متى يتبين للناس الحق ، فصدع وجهر بكلمة الحق وكان موقفًا عظيمًا ، عصمت به الأمة كلها - رحمة الله عليه - وبقاء واحد ثابت على دين الله أفضل وأكرم من طوابير طويلة ، تعطي الطغاة والطواغيت ما يطلبونه ، وما يريدونه .

وقديمًا قالوا : ما عصى الله إلا بالتأويل ، وهذه المصالح التي تتوهمها في خلاف شرع الله ، ما هي إلا مفاسد ، اربأ بنفسك وإلا فكل مقدمة لها نتيجة ، وكل عقيدة لها تأثير .

يقول سبحانه : ﴿ **وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ** (٥٨) ﴾ [الأنفال : ٥٨] .

إذا ما أحسست خيانة ممن لك عهد معهم ، لا تبادرهم لا تبدأهم أنت بالخيانة ، لا تسبقهم ، بل انبذ إليهم حتى تستوي أنت وهم في العلم ، ثم تستعين بالله عليهم فتنصر وتكون لك الغلبة ، لأنك على تقوى الله : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ** (١٢٨) ﴾ [النحل : ١٢٨] .

نحن لا نواجه الخيانة بخيانة ، لا أبداً ، أنا سأقف في مقامات التقي ، في المقام الذي أمرني سبحانه ـ أن أقوم فيه ـ ، هذا هو شأن علماء الأمة وصالحيها ، هذا هو شأن حكام الأُمَّة ومكحوميها كانوا قوَّامين بشرع الله ، ولذلك نصرهم ربنا نصراً عزيزاً مؤزراً ، حين تنظر أنت في موقف أبي بكر ـ رضوان الله عليه ـ ما الذي دعاه لأن يتقدم أمام النَّبيّ ﷺ يوم الهجرة ، يتقدم أمامه عندما يتذكر الرصد يتحول خلفه ، إذا ما تذكر الطلب يتحرك عن يمينه تارة ، وعن شماله تارة أخرى يسبقه إلى الغار ، يقول : إن أهلك أهلك وحدي ، وإن تهلك تهلك معك الدعوة .

هل كانت صداقته ومحبته للنَّبيّ ﷺ دائمة ؟! ، لماذا لم يستجب لحديث نفساً ؟ ، لوسوسة أو لهوى تدعوه لاستبقاء نفسه ؟ ، لربما كانت الصداقة بعد ذلك ، ثم إذا أتى الأمر على حساب حياة ، أو على حساب مال ، قال : أنا ومن بعدي الطوفان ، نفسي نفسي لا غيرها ، ليس هذا شأن المسلمين ،ليس هذا شأن الصالحين ، سيجود بنفسه ، ويقول : إن أهلك أهلك وحدي ، وإن تهلك تهلك معك الدعوة ، نظرات إيمانية ، تنطلق خلال ما جاء في كتاب الله وفي سُنَّة رسول الله ﷺ ، ما الذي عرضه ـ رضوان الله عليه ـ للأذى عندما اجتمع الكفار على رسول الله ﷺ يخنقونه تارة ، يؤذونه ويضعون سلا الجذور على ظهره الشريف تارة أخرى ما الذي حدى بأبي بكر ؟ ، ما الذي جعله يأتي ويقول : أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ؟ ، فانهالوا عليه بالضرب حتى أغمي عليه وحتى وقعت غدائره ، فلما أفاق قال : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، انظر وكان هذا هو شأنه، ما الذي دعاه إلى ذلك ؟ ، إيمان ، انطلق من خلاله حتى وإن افتداه ذلك لأن يجود بنفسه ، أمثال هذه العبارات وأمثال هذه المصطلحات لم يقرأوا الشرع ولم

يقرأوا الدين قراءة صحيحة حتى وإن فزلكوا القول وفلسفوه ، هؤلاء لو سألتهم ماذا تقولون في قصة صاحب ياسين ؟ ، في قصة مؤمن آل فرعون ؟ ، في قصة عبد الله الغلام ؟ ، في أمثال هؤلاء ما هو قولكم؟ ، لماذا جاد الواحد بنفسه ؟ ، ما الذي دعاه وحدى به ، والسلوك مرآة الفكر ، لماذا يقدم صاحب ياسين من أقصى المدينة يسعى؟ ، لماذا لم ينأى بنفسه؟ ، لماذا لم يقف بساسية ميكيافيللي يحقق بها المصلحة لنفسه ؟، يقول: أعمل وأتكسب ، أسعى على أولادي وعيالي، يكون هذا شأنه وحاله .

لماذا لم يوافق ولم يرضى أعداء الإسلام والمسلمين ، ممن صرعوا المرسلين من قبل ؟ ، لماذا لم يواليهم ويؤاخيهم ؟ ، هو الإيمان يا عباد الله ، إذا ما تمكن من القلب اندفعت الجوارح والسلوك مرآة الفكر ، وكل إناء بما فيه ينضح قام في مقامات الهدى ، في مقامات التقى ، لم يكن منه موالاة ولم يكن منه موافقة لأعداء الإسلام والمسلمين ، بل الصدع بكلمة الحق التي صدع بها الأنبياء والمرسلين . محبة لها مواريث لها علامات ، ليست مجرد كلمة تقال :

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣١] .

لماذا اندفع الفتية ودخلوا الغار ، تركوا حياة القصور ، تركوا المتاع واللذائذ ، لماذا لم يقول : ننشيء أسرة إسلامية بعد حين ؟ ، إن طالت بنا حياة ، لماذا لم يقولوا : تعبير البعض يردده كهذا التعبير بعد عشرين سنة ، بعد ثلاثين سنة ، من الممكن أن أتفرغ لدعوتي ، طاعة الوقت هي التي دفعته لموالاة هذا ومعادات ذاك ، طاعة الوقت هي التي جعلتهم يجهرون بكلمة الحق، ويقولون ﴿ هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (١٥) ﴾ ، فكان منهم التباعد بالنفس على الرغم من أنها

براعم صغيرة ، فتيه آمنوا بربهم وزادهم سبحانه هدى ، وكانت الاندفاعه الإيمانية ، وكان هجران القوم ، وكان هذا هو شأن الصغار قبل الكبار ، لماذا لم يستبقي الغلام نفسه ويوالي هذا الطاغية الذي استقدمه لتعلم صنعة السحر ؟ ، لماذا يخالف الساحر ويخالف الطاغية ويجود بنفسه على مثل هذا النحو ؟ ، مسائل كثيرة تحتاج إلى وقفات ، ولا يمكن أن تقرأ الدنيا قراءة صحيحة إلا بالرجوع إلى كتاب الله وإلى سُنَّة رسول الله ﷺ . . . وعليهم أن يقولوا لنا ما الذي يحدث الآن في العراق ؟ ، وفي أفغانستان؟، وفي فلسطين ؟، هل هي العداوة لهذه الأُمَّة ؟، أم هي المحبة لها؟ ،وحتى ولو كانت العداوة وكانت هذه هي الإجابة والأمر كذلك ، هل هي وليدة اللحظة ؟ ، هل هي وليدة مصالح مادية ؟، للتحصل على البترول أو على الأشبار والأمتار ؟ .

أنت لو أخذت نبأهم من خالقهم ؛ ﴿ **وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ** ﴾ [فاطر:١٤]، تعلم أن الأعداء هم الأعداء ، أعداء الأمس هم أعداء اليوم ﴿ **لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا** ﴾ [المائدة : ٨٢] وهذا هو شأنهم ، وهذا هو حالهم يخبر به خالقهم ﴿ **وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ** ﴾ [البقرة : ١٢٠] ، عندما نظرت أنت في دنيا الواقع هل وجدت خلاف هذه الآية ؟! .

هذا هو شرع ربك ـ تبارك وتعالى ـ عداوة مستحكمة ، أصحاب عقائد ، يريدون أن يطبقوها في البلاد وفي العباد ، تدافع بين الحق والباطل ، بين الإيمان والكفر :

﴿ **وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ** ﴾ [البقرة : ٢٥١] .

سياسة شرعية لا ميكيافلية :

فهناك عداوات دائمة ، وهناك صداقات دائمة ، والسياسة التي تخالف دين الله ، ما هي إلا سياسة الميكيافيليه ، والسياسة الشرعية التي نستقيم فيها وبها على شرع ربنا ،، هي التي تتحقق بها المصالح في العاجل والآجل ، وإلا فحياتنا ممتدة ، تمتد زمانًا ومكانًا ، زمانًا لأبد الآبدين ومكانًا لجنة فيها ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، قال سبحانه : ﴿ **الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ** (٦٧) ﴾[الزخرف :٦٧] .

كان عليّ بن أبي طالب - رضوان الله عليه - يحتضن الزبير ويحتضن طلحة ويقول : نحن ممن قال الله فيهم : ﴿**إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ** ﴾[الحجر : ٤٧] .

المسلم ما ينسى حق إخوانه حتى وإن بغوا عليه ، حتى وإن ظلموه يحبهم، وأوثق عرى الإيمان ، الحب في الله والبغض في الله ، والمرء إذا أحب في الله وأبغض في الله فقد استكمل الإيمان إيمان ودين ، لابد من متابعته ، لابد أن ندور مع ديننا حيث دار ، وكل مخالفة نعتبرها ، وكأن الإنسان لو خر من السماء إلى الأرض لكان أهون عليه من أن يجد هذه المخالفة في نفسه ، هذا الهوى ، هذه المصلحة التي يتخطى بها شرع ربه - وجل وعلا - ينظر إلى المصلحة الحقيقية التي ساق بها الكتاب والسُّنَّة على أنها المهلكة الحقيقية في العاجل والآجل،كَون منظم ومحكم ، يدور وفق أمر الله - جل وعلا - : ﴿**لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** (٤٠) ﴾[يس : ٤٠] ، أمانة لابد من القيام بها، قال تعالى : ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا** (٧٢) ﴾.
[الأحزاب :٧٢] .

إن هؤلاء الذين يقولون : « لا عداوات دائمة ، ولا صداقات دائمة ، وإنما هي مصالح دائمة » .

أخطأوا وخابوا وخسروا ، خالفوا الشرع ، وخالفوا الواقع ، لم ينطلقوا من موازين إيمانية ، ولذلك كانت المصادمة مع دين الله - تبارك وتعالى - جملةً وتفصيلاً ، أخطأوا ضوابط الإنكار وأخطأوا كيف تتحقق المصالح الحقيقية، شرع الله مصلحة كله ، وحيثما كانت المصلحة فثمَّ شرع الله ؛ لم يدركوا معاني الإخلاص ، ولا معاني إقامة واجب العبودية في دنيا الناس ، لم يدركوا ما الذي يصوغ ويجوز في التعامل مع الكفرة ؟ ، وما الذي لا يجوز ؟ ، اختلطت عليهم المسائل ، نتيجة الانحراف والبعد عن منهج الله - تبارك وتعالى - وأنت لابد وأن تحيا حياة البصيرة ، إذا كنت تحذر على نفسك لدغات الحيَّاتِ والعقارب ، فاحذر هذه الكلمات التي تموج في الواقع ويرددها القاصي والداني ، كلمات خربة وعفنة ، كلها لها معاني ورصيد عن أهلها ، كهذا المصطلح الذي تروقه الألسنة الآن ، لابد من حيطة وحذر ﴿ **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** (١٠٨) ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

عبارات قد تهدم دين ربك جملة وتفصيلاً ، فكيف ترددها ؟ ، وأنت المسلم وأنت الذي تزعم أنك قد تعلمت ، قد درست في المناهج الفلانية ، ثم تأتي العبارة والمصطلح ، تقلبك رأسًا على عقب ، تردد ما يخالف دين ربك، احذر ذلك على نفسك ، وإلا فهي عبارات تصوغ البلاد والعباد ، تولد معاني نفاقية ، تولد أشخاصًا مادية ، يدورون في دنيا الناس مع مصالحهم المتوهمة مع ما يملأ الجيب ، يخادعون ويخونون، ويعتبرون ذلك هو الذكاء وهو الفطنة ، وهو النباهة ، ولسان حالهم ينطق : أنا أتحالف مع الشيطان من أجل مصلحتي ،

خبت وخاب شيطانك ، عندما تتحالف مع ما يسخط دين ربك ـ تبارك وتعالى ـ تضيع نفسك ، سم الأشياء باسمها ، أنت ما حققت مصلحة ، وإلا فالنفس إلى موت والمال إلى فوت ولا بورك أبداً في الحرام وفي التعدي ﴿ **فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا** ﴾ [طه : ١٢٣] .

تحقيق مفهوم الـــولاء والبـــراء :

كان الواجب علينا ، كناس استبصروا بشرع ربهم ، أن ندور مع الإسلام حيث دار ، هناك تعاملات تجوز مع أهل الكتاب وغيرهم ، وهناك ما لا يجوز وأنت هنا وهناك عبدٌ لله تبارك وتعالى ، ما تنطلق إلا من خلال شرع الله ـ جل وعلا ـ النَّبيّ ﷺ ، « **أُهدي لعمر بن الخطاب حله سيراء ، فأهداها لأخٍ مشرك له في مكة** » [١] ، إذًا تجوز الهدية مع أمثال هؤلاء ، ولذلك بوب الإمام البخاري ـ رحمة الله عليه ـ باب : إهداء الوالد المشرك ، باب : إهداء الأخ المشرك ، وبوب أبو عمر بن عبد البر باب : إهداء الأخ المشرك ، وإن كان حربيًا .

وعاد الغلام اليهودي ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ، وقال : أسلم، فقال له أبوه : أطع أبا القاسم ، وفاضت روحه من ساعته، فقال لهم النَّبيّ ﷺ : «**الحمد لله الذي أنقه من النار** » [٢]، ولذلك إذا ما سألنا ؛ تجوز الصدقة، تجوز العيادة، وردت بها النصوص الشرعية،كان النَّبيّ ﷺ يبيع ويشتري مع اليهود مات ودرعه مرهون من يهودي،كان هذا هو شأنه ﷺ، دعي إلى طعام يهود المدينة، فالضيافة أيضًا جائزة ،والبيع والشراء معهم جائز بدلالة النصوص عليه ، ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ **وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ** ﴾ [المائدة : ٥] .

(١) البخاري ومسلم ، وأصحاب السُنن .
(٢) سبق تخريجه .

فإذا ما سُألنا عن التزوج من الكتابية ؛ يهودية أو نصرانية ، قلنا : يجوز ذلك وبذلك وردت نصوص الكتاب والسُّنَّة ، ونحن لسنا من هواة تحريم الحلال ولا تحليل الحرام ، ندور مع إسلامنا حيث دار ، بل ويعاشرها بالمعروف ، يعطي لها حقوقها كاملة غير منقوصة ، دون أن يحب ما هي عليه من باطل وكفر وضلال ، وكذلك الأمر بالنسبة للابن ، يحسن لوالديه ، يبر الوالدين ، دون أن يحب ما هم عليه من كفر وباطل وضلال ، قال سبحانه : ﴿ **وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا** ﴾ [لقمان : ١٥] .

ضوابط شرعية،يجوز لك رحمة هذا الكافر برحمة العامة إلا لو كان حربيًا ، تطعمه من جوع ، تسقيه من عطش ، تداويه من مرض ، « **في كل كبد رطبة أجر** » [١] ، يجوز لنا أن نأكل ذبائحهم ، إذاً ضوابط شرعية ، يجوز لك رحمة هذا الكافر برحمة العامة إلا لو كان حربيًا تطعمه من جوع ، تسقيه من عطش ، تداويه من مرض ، و« **في كل كبد رطبة أجر** » ، يجوز لنا أن نأكل ذبائحهم ، إذا ذبحوا بمُحَدد في منحر ، جاز لنا أن نأكل ذبائحهم ، : ﴿ **وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ** ﴾ [المائدة : ٥] .

هي ذبائحهم باتفاق المفسرين ، العدل معهم مطلوب وواجب : ﴿ **وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ** ﴾ [المائدة : ٨] .

لما ذهب عبد الله بن رواحة ـ رضوان الله عليه ـ يُخَرص نخل يهود خيبر ، أرادوا رشوته ، فقال : يا أعداء الله ، تعلمونني السحت ، فوالله لقد جئتكم من عند أحب الناس إليَّ ، ولأنتم أبغض إليَّ من عدتكم ، من القردة والخنازير ، ولا يحملني حبي إياه وبغضي إياكم على أن لا أعدل بينكم ، قالوا : بهذا قامت

---

(١) البخاري ومسلم وأصحاب السُنن .

السموات والأرض، معانٍ جائزة في التعامل مع أهل الكتاب ومن كان على شاكلتهم ، وفي ذات الوقت هناك ما لا يجوز ، ولا يصح لك أن تنظر للنصوص بعينٍ واحدة ، تؤمن بالبعض وتكفر بالبعض الآخر ، تُبعض أو تجزأ دينك ، وردت النصوص أيضًا بأنه لا محبة لا أخوة ، لا صداقة ، لا مودة ، لا موالاة بيننا وبين ملل الكفر ، هذا وردت النصوص الشرعية وكان العمل عند الأفاضل بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي أهدى لأخ مشرك له بمكة، هو هو الذي قال يوم بدر : أرى أن تدفع لي فلان وأن تدفع عقيل لعليّ وتدفع فلانًا لحمزة ، حتى نقتلهم وحتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هوادة للمشركين ، هكذا اتسعت قلوب الأفاضل للمعنى الأول والمعاني الثاني ، الأمر الذي ضاقت به صدور ، إن استمسك فريق بهذه النصوص ، أهدر وأهمل النصوص الأخرى ، وعلى العكس والنقيض صنع فريق بطريقة « بما أن إذن » ، لما قرأوا جواز الهدية والضيافة ، قالوا : اخواننا ، أصدقاؤنا ، أحبابنا اليهود ، خابوا وخسروا ، أخطأوا الفهم ، لم يدوروا مع إسلامهم حيث دار ، وعلى العكس والنقيض كان الفريق الثاني لما قرأ قوله تعالى : ﴿ **لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ** ﴾ [المائدة : ٥١] ، قال : وبطريقة « بما أن إذن » ، لا بيع ولا شراء معهم لا هدية ولا عيادة ، أخطأوا وخابوا وخسروا أيضًا لمصادمة النصوص الشرعية ، الواجب عليك أن تسلم وجهك لله ، أن تحترم نصوص الشريعة ، أن تدور معها حيث دارت ، أن يكون عندك نظرة شمولية ، لا تؤمن بالبعض وتكفر بالبعض الآخر ، طالما وردت نصوص بهذه وبتلك .

عمر بن الخطاب رضي الله عنه هو هو لما علم أن أبا موسى الأشعري رضي الله عنه ولى كاتبًا نصرانيًا، قال : « **قاتلكم الله ، لا تقربوهم وقد أبعدهم الله ، لا تعزوهم وقد**

أذلهم الله ،لا تكرموهم وقد أهانهم الله» ، هكذا كان شأنهم، هكذا كان حالهم ، الواجب علينا أن ندور مع إسلامنا حيث دار ، فلا محبة ولا أخوة ولا صداقة ولا موالاة :

تحب أعداء الحبيب وتدعي   حبًا له ماذاك في إمكان

﴿ **مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ** ﴾ [الأحزاب : ٤] .

والناس على أصناف ، صنف نحبه ومحبتنا له دائمة ، وهكذا نتمنى ، نحب الأنبياء والمرسلين ، ومن تابعهم بإحسان إلى يوم الدين ، ونقول :

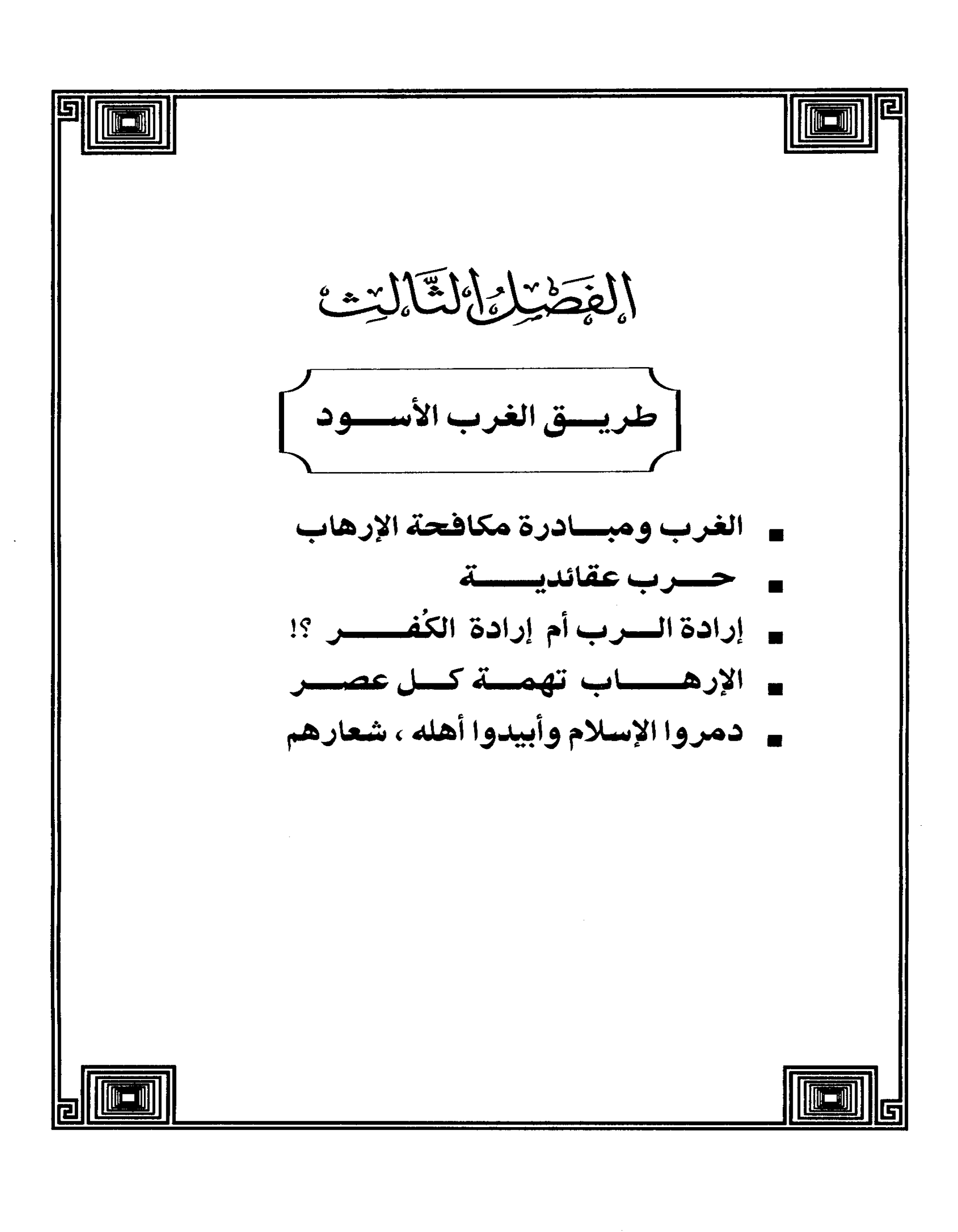
أبي الإسلام لا أبا لي سواه   إن افتخروا بقيس أو تميم

حتى وإن اختلفت الألسنة والألوان ، حتى وإن تناءت وتباعدت الديار ، أحب أنا المسلم ، إن كان عراقيًا ، أو سوريًا ، أو أفغانيًا ، أحب المسلم ، سواء وجد في هذه البقعة أو في غيرها ، ما أضع وطنية لا قومية نصب عينيّ ، أضع الإسلام الذي أمرت به ، أحب المسلم حتي وإن لم يكن من أهل بلدي ، وأبغض الكافر حتى وإن كان مواطنًا ، هكذا يكون الأمر دينٌ لابد وأن يدان به لله - تبارك وتعالى - وأنت الذي تسعى طلبًا لنجاة هذه النفس ، فصنف من البشر يجب من كل وجه ، وهم المؤمنون الخلَّص ؛ لا تملك إلا محبتهم ، وبغضهم ، صاحب ذلك يراجع نفسه ، يراجع إيمانه ، يحتاج لمراجعة الإيمان ، وفق معاني الإيمان ، أن تتقرب إلى الله ببغض المسلمين ، أن تراجع نفسك ، إيمانك فيه دخن ، وعلى العكس والنقيض تجدنا ،لابد وأن نبغض الكفرة في كل عصورهم ودهورهم ، هنا وهناك نتقرب إلى الله ببغضهم ، نبغض فرعون ، ونبغض أبا جهل ، نبغض الملاحدة ، نبغض الشيوعيين ، نبغض اليهود والنصارى والملحدين ، وبُغضنا لهم دينٌ يدان به لله - تبارك تعالى - فهناك صنف من البشر يبغَض من كل وجه ، إذا

كَفَرَ بخالق الأرض والسماوات ، يقول سبحانه : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) ﴾ [التوبة : ٣١] .

هذا هو قول ربك ، هذا هو قول خالقك ، المرجع والمآب إليه سبحانه ، ثم هناك صنف ثالث ، يحب من وجه ويبغض من وجه آخر ، وهو المسلم العاصي أو المبتدع ، يحب لإسلامه لأن هذا أصل فيه ويبغض لمعصيته الطارئه عليه ، وبحيث يصطلح كل فريق على حق ، ولذلك لا يسعك أن تتبرأ من المسلم ، البراءة ما تكون إلا من الكافر ، ونتبرأ من فعل المسلم الذي يخالف به كتاب ربه وسُنَّة نبيه ﷺ ، طاعتنا وانقيادنا وولاؤنا وبراؤنا لابد وأن نستبصر فيه بكتاب الله وبسُنَّة رسول الله ﷺ ، وإلا فيهدم الإسلام إن نشأ فيه من لا يعرف الجاهلية ، وما قيمة أن ترضي الناس أنت بسخط الله ، وما قيمة أن تمتلك الدنيا وتحوزها بحزافيرها وتخسر دينك ، تَرد على ربك ـ تبارك وتعالى ـ مفلسًا ؛ المرجع والمآب إلى الله تعالى ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٢٨١) ﴾ [البقرة : ٢٨١] .





الفصل الثالث

طريق الغرب الأسود

- الغرب ومبادرة مكافحة الإرهاب
- حرب عقائدية
- إرادة الرب أم إرادة الكُفر ؟!
- الإرهاب تهمة كل عصر
- دمروا الإسلام وأبيدوا أهله ، شعارهم

الفصل الثالث

طريق الغرب الأسود

الغرب ومبادرة مكافحة الإرهاب :

لماذا لا يتجاوبون مع عقد مؤتمر لمواجهة الإرهاب الدولي هنا وهناك وخصوصًا هم يلوحون بإقامة معاني الحق والعدل،وأنهم بصدد استئصال شأفته ، وأنهم سيمارسون حروب استباقية ، وأنهم عندهم من المكانة الأخلاقية ما يواجهون به الظلمة ، هكذا يصرحون ، فلماذا كان الإمتناع ؟ ، ولماذا كان عدم التجاوب أو التلكأ في قبول هذه المبادرة والتي تم الإلحاح بها المرة تلو المرة ، كان يتصور في هذه المبادرة أو في هذا المؤتمر الذي يزمع عقده أن يتم فيه التداول على مواجهة هذه الحوادث التي تروع الآمنين، أو تستهدف الأبرياء، ومعصومي الدم ، يتكلم فيه على حقوق الشعوب في مقاومة العدو المحتل ، في إقامة معاني الحق ونبذ الظلم ، يكون شأنه كشأن هذا الاجتماع ، وهذا الحلف الذي تم في دار عبد الله بن جدعان وتم ذلك في الجاهلية ، شاهده رسول الله ﷺ ، وكان لنصرة المظلوم سواء كان قرشيًا أو غير قرشي ، وقال ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ : « **لو دعيت به في الإسلام لأجبت** »[1] ، شهد رسول الله ﷺ وأقر ذلك ، ونحن

(١) سيرة ابن هشام ، سيرة النبي لابن كثير ، من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر من طريق سفيان بن عُيينة ، رواه الحميدي ، وكذا في تاريخ مكة .

نرفض الظلم حتى وإن تعدى لكافر ﴿ **وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ** ﴾ [المائدة : ٨].

ويبرز السؤال ويتأكد الإلحاح ، لماذا لم يوافق الغرب ؟ ، لماذا لم توافق أمريكا أو اليهود ؟!! ، على هذه المبادرة الدولية ، أو على هذا المؤتمر لمكافحة الإرهاب ، سؤال لابد من عرضه وطرحه ، ولا يمكن أن تجيب عليه إلا إن تعرفت على طبيعة الغرب ، وعلى طبيعة أمريكا ، وعلى طبيعة اليهود ، هؤلاء وكأنهم ينشدون الوقوف على منصة القضاء ، أن يكون هؤلاء هم القاضي ، وهم الجلاد ، وهم المتهم ، أو المجني عليه في نفس الأمر ، بمعنى ؛ لا يسمحون لغيرهم أن يشاركهم أو أن ينازعهم أو يشاركهم في الوقوف على منصة القضاء .

لو تعرفنا على طبيعة هؤلاء لوجدناهم يريدون تفصيلاً لمعنى الإرهاب بحيث يكون على مقاس المسلمين ، هؤلاء الأعداء ، ولابد من تسمية الأشياء باسمها ، لابد من التعرف على طبيعتهم من باب : عرفت الشر لا للشر ، ولكن لتوقيه ، لابد من التعرف على دوافع السلوك والتصرف ، لا يصح إحسان الظن بهؤلاء الأعداء ولا الثقة فيهم ولا في ما يقدمون عليه من أقوال وأفعال ، خذ وصفهم من خالقهم : ﴿ **قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ** ﴾ .

[آل عمران : ١١٨] .

لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة ، هذا هو شأنهم وهذا هو الذي حكاه سبحانه عنهم ﴿ **وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ** ﴾ [البقرة : ١٢٠] ،حذرنا من موالاتهم فقال : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ** ﴾ [المائدة :٥١] .

كان لابد من معرفة لطبيعة هؤلاء ، لماذا يقدمون ؟ ، ولماذا يحجمون؟ ،

وخصوصًا البعض ممن يدعي الفلسفة وعنده نظرات تحليلية كان الواجب عليه أن يستقرأ طبيعة هؤلاء ، تقول : يزرعون الإرهاب ويحصدون ثمارة . تقول : عندهم إرهابٌ أسود ، ما يعرفون لغة أغصان الزيتون ، ما يعرفون سماحة ، ما يعرفون إلا قلبًا للحقائق ، ما يعرفون إلا الحنق على هذه الأمة والحقد لها ، ما يعرفون إلا ممارسة العنف ... يتكلمون بصدام الحضارات ، وكل إناء بما فيه ينضح ، والبعض من جلدتنا وممن يتكلم بلساننا ، وكأن السكين قد صوبت إلى قلبه يناشدهم الحوار يقول : حوار الحضارات ، بدلاً من : صراع الحضارات ، شأنه في ذلك كمن يخاطب مجنونًا ، يقول له : لا داعي لأن تمسك بالسلاح لا داعي للصدام ، هيا بنا ندخل في حوار ، ولو جئت للمجنون بمائة عقل على عقله ، لا يعجبه إلا عقله ، كما يقولون : فاقد الأهلية .

حـــرب عقائديـــة :

والغرب عندهم حقد لهذه الأُمَّة ، عنده عقيدة يعمل بها ، ولها ، كان الواجب علينا أن نتعرف على مواضع الأقدام من باب عرفت الشر لا للشر ، ولكن لتوقيه ، ومن لا يعرف الشر من الخير يقع فيه ، كان الواجب علينا أن نستقرأ السُنن الشرعية والسُنن الكونية ، ستجد ملف أسود ، تاريخ أسود لهذا الغرب ، في ماضيه وحاضره ، بل وفي مستقبله كذلك ، هذا هو شأنهم ، بغضاء يعملون بها ولها ، يعملون بها من أجل هذه الأُمَّة ، هذا هو شأنهم ، يشنون علينا الحروب تلو الحروب ، كان هذا هو شأنهم وما زال وبالتالي لابد من حذر ، لابد من وجل ، اعرف عدوك ، خذ حذرك ، هذا واجب عليك ، لا أن تناشد أمثال هؤلاء ، أن يقيموا حقًا وعدلاً ، والأمثلة على ذلك كثيرة وعديدة ، تاريخ

وملف أسود كما ذكرنا ، انظر لما يحدث فيما يتعلق بالملف النووي الذي يتكلمون عنه ، يحجرون على المسلمين هنا وهناك ، بينما الغرب يمتلك السلاح النووي ، أمريكا تمتلكه ، اليهود يمتلكونه ، ويمنعونه من المسلمين ، ويصبح شأنك وحالك أن تتبرأ من امتلاك سلاحك النووي ، أن تثبت بكل الصور والحيل ، أنك ما تمتلكه إلا لأشياء سلمية فحسب ، بينما هم يمتلكونه ، تقول : يكيلون بمكيالين ، يزنون بميزانين ، مكيال لهم ومكيال المسلمين ، حروب وإرهاب أسود واضح وبيِّن ، انظر لما يفعلونه بأسلحة الدمار الشاملة ، وأنت تقرأ وتطالع الأحداث وإن استطعت أن تضرب كفًا بكف على ما يحدث تعجبًا لما يحدث وإلا فهذا البلد يتنصل من امتلاك أسلحة الدمار الشاملة ، ورغم ذلك سيشنون عليه الحروب تلو الحروب ، يدمرون الأخضر واليابس ، وهم هم في كل دولهم ، يمتلكون أسلحة الدمار الشاملة ، فلماذا منعوه ؟ ، ولماذا حرموه على المسلمين ؟ ، أليس هذا إرهابًا ؟ ، عندما تقرأ وتطالع الأحداث وتنظر للواقع من حيث هو واقع ستجد أن مجلس الأمن والأمم المتحدة ما هي إلا بمثابة مخلب قط . لهؤلاء الأعداء للغرب ولأمريكا ، القرارات ما تصدر إلا لمصالحهم وتحقيقًا لها ثم يصغونها على أنها الرغبة ، رغبة الجميع ، رغبة المجتمع الدولي ، وما هي إلا رغبة أمريكا ، ما هي إلا رغبة هذه الدول الغربية ، هذا هو شأنهم متى أنفذوا قراراً على اليهود، وترى القرارات قد تصدر ولكن لا سميع ولا مجيب،لا تجد من ينفذ قراراً منها ، بينما لو قتل كلب هنا ستجد الدنيا بأسرها تسارع لعقد المؤتمرات ، تجيِّش للجيوش في التوِّ واللحظة ، يكيلون بمكيالين ، مجلس الأمن ، من الذي يصدر حق الفيتو فيه ؟، دول لا حظ لها ولا نصيب لها في الإسلام ، ليس لله فيها نصيب ، قصروها على أنفسهم .

أين قوة المسلمين ؟ ، متى يكون لهم حال وشأن وقرار ؟ ، متى يكون لهم كلمة مسموعة ؟ ، طمس الحق والحقيقة ، هذا هو شأنهم ، القرارات قد تصدر ولا تجد لها تنفيذًا .

انظر لسبِّهم لرسول الله ﷺ ما الذي صنعوه ؟ ، وما الذي فعلوه ؟ ، جُرم أكبر يستحقون المعاقبة عليه ، لم يكتفوا بسب النَّبي ﷺ ، بل كان منهم التواطؤ وكان منهم الجهر بمعاقبة العالم الإسلامي ، إن هو استمر في معاقبة الدنمارك ، أي تواطئ هذا ؟! ، أي إرهاب هذا ؟! ، هذا هو الإجرام بعينه ، عنف وإرهاب أسود يمارسونه مع المسلمين .

والمسألة لا تقتصر على قتل فلان أو علان ، إن كنا نجرِّم ترويع الأبرياء ، قتل الآمنين ، فنحن أشد تجريمًا لانتهاك حق المسلمين هنا وهناك ، وأشد تجريمًا لانتهاك حق رسول الله ﷺ ، وتواطيء مريب ، قاموا عن بكرة أبيهم يسبون النَّبيّ ﷺ بل ما قدَّموا اعتذارًا يتيمًا ، هذا الاعتذار الذي كان ينشده البعض ، لم يقدموا عليه ، بل اجترؤا أكثر وأكثر ، وأعلموا أن الانتقام من هذه الأُمَّة ، إن هي استمرت في مقاطعة الدنمارك ، كان هذا هو شأنهم ، بماذا نسمي هذه الأحداث ؟ ، وهم هم ، سيقولون بأنه من سب اليهود أو أنكر المحرقة اليهودية وما يطللق عليه اسم « الهولوكيست » يعرض نفسه لعقوبة ، يعرض نفسه لمحاكمة ، هكذا يكون الشأن والحال مع ممن أنكر المحرقة اليهودية ، ويكون الشأن والحال مع من سبَّ رسول الله ﷺ ، إرهاب ، والإرهاب ما يقتصر على الإرهاب البدني والمادي ، بل الإرهاب الفكري قد لا يقل عن ذلك ، وهم يمارسون هذا وذاك في حق الأفراد وفي حق الدول والشعوب ، صار شأن المسلمين إذا ما جهروا بعداوة اليهود أن يدخلوا في محور الشر ، هكذا كانت التقسيمات ، هل هذا شأن من

سب يهودي أو انتقصهم، أو أظهر إيمانًا وإسلامًا ، يدخل في ضمن محور الشر ، أيكون هذا هو حاله وشأنه ؟ .

بماذا نسمي حرب فرنسا وألمانيا لحجاب فتاتين؟،لحجاب الفتيات المسلمات ، إلا أنه حرب لهذه الأُمَّة ولشعائرها ولدينها في الوقت الذي يصرح فيه الغرب بأنهم من دعاة الحرية ، من دعاة حقوق الإنسان ، إلى غير ذلك من النعرات التي لا واقع لها ولا رصيد .

هذا كله إنما يسمحون به لمن كان على شاكلتهم وعلى هيئتهم ، أما أن يلتزم مسلم بدين الله ، تُظهر امرأة شعائر إسلامها ترتدي حجابًا ، ستقوم الدنيا عندهم ولا تقعد ، خذ وصفهم من خالقهم : ﴿**قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ**﴾ [آل عمران : ١١٨] ، فسروا الإرهاب على مقاس المسلمين ، ثم بضائع ، سيقولون : ﴿**بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا**﴾ [يوسف : ٦٥] ، هذا هو حالهم .

هل هي إرادة الـــرب أم إرادة الكُفـــر ؟! :

كان الواجب علينا أن نتعرف على مواضع الأقدام ، اعرف عدوك ، وإلا فالغرب وأمريكا عبارة عن إرهاب أسود ، ترويع للآمنين ، إبادة للشعوب وما حادثة العراق منكم ببعيدة ، تقسيم للشمال عن الجنوب عن الوسط ، زرع للفتنة بين العباد ، سياسات فرقق تَسُد ، السجون وما يحدث فيها من انتهاك لأعراض المسلمات ، وكأن البعض اكتشف أن أمريكا لا تعمل بحقوق الإنسان، وأنهم يروعون الآمنين ، وأنهم يقتلون الأبرياء ، وأنهم ينتهكون أعراض المسلمات ، كل ذلك ما هو إلا تحصيل للحاصل ، ومن استشكل ذلك ، أو

أعلن كأنه قد اكتشف ، نقول له : وكأنك قد أحسنت الظن بهؤلاء الأعداء ، هم لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمَّة ، خذ وصفهم من خالقك - جل في علاه - : ﴿ **وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا** ﴾ [البقرة : ٢١٧] .

هذا هو شأنهم وحالهم عندما يفعلون ما يفعلونه ، وينفذون ما يقومون به تحت زعم أنها إرادة الرب ، صار هذا هو العنوان ، صارت هذه هي الكلمة ، إما أن توافقهم وإما أن تكون أنت ضد إرادة الرب ، وهو نفس التعبير الذي رفعوه على الحروب الصليبية : صليبية معاصرة ، صليبية في ثوب جديد ، وكأنها تنفذ إرادة الرب ، نفس التعبير الذي أُطلق في وقت من الأوقات ، هذا هو شأنهم مع هذه الأمة ، يريدون أن يفكروا لنا ، أن يبصروا لنا ،أن يسمعوا نيابة عنا ، أن يعتقدوا لنا ما يعتقدونه من كُفر وباطل وضلال ، كل ذلك سيضعونها نيابة عنا، كأنها أُمَّة غيب عقلها ، لا عقيدة عندها ، لا إرادة لديها ، وكأن هذه الأُمَّة قد اندثرت وانتهت وماتت إلى غير رجعة ، وهيهات ثم هيهات ، كان لابد من يقظة ، كان لابد من معرفة للواقع ، ما الذي يصدر الإرهاب؟، ما الذي يزرعه؟ ، وما الذي يستثمره ؟ ، وإلا فحوادث قد ترتكب ، لما تقرأ وتطالع ما فعله اليهود من إجلاء لرعايهم المرة تلو المرة هكذا يصرخون،ما الذي أعلمهم بإرتكاب هذه الحوادث؟، بل تاريخهم مشبوه في قتل الأبرياء ، وما مذبحة مدرسة البقر ومذابح صبره وشتيله وغير ذلك ، كل ذلك قد تمرسوا فيه ، هذه هي صنعتهم ، هذه هي حرفتهم ، عندما يقض على الإنجليز في العراق وهم قد ملؤا وحشوا السيارات بالمتفجرات رجاء قتل الآمنين والأبرياء ، وحتى يُشار بالسهم إلى فئة معينة ، إلى المقاومة الموجودة ، هم الذين يقتلون ، وهم الذين يروعون الأبرياء ، تاريخ الغرب أسود ، تاريخ مملوء بالعنف وبالحقد وبالإرهاب ، هذا هو شأنهم ، ومن انخدع

بهتافات وشعارات الحرية والسلام وحقوق الإنسان عليه أن يراجع نفسه ، عليه أن يراجع دينه ، يقرأ الأحداث على ضوء ما جاء في كتاب الله ، وفي سُنَّة رسول الله ﷺ ، هذا هو شأنهم مع المسلمين هنا وهناك .

وقد عرفت الشر لا للشر ولكن لتوقيه
ومن لا يعرف الشر من الخير يقع فيه

اعرف عدوك تحقق بمفهوم الولاء والبراء ، رجاء السلامة ، السلامة ليس فقط في العاجل ، وإنما أيضًا السلامة في الآجل .

تحب أعداء الحبيب وتدعي حبًا له ما ذاك في إمكاني

تدخل يدك في فم الحية ، تدخل نفسك في جحر حية رقطاء ، قطعًا ستقتلك وستفتك بمن حولك ،محتاجين لإقامة معاني الحق والعدل لننهض بدين الله - تبارك وتعالى - وأن نتعرف على السُنن الكونية ، وعلى السُنن الشرعية ، وإلا فانظروا كيف دمروا شعوبًا ، كيف دمروا مليون طفل عراقي ، هذا هو شأنهم ، هذا هو حالهم، هذا إرهاب أسود، أنت تبكي إذا ما قتل فلان أو علان ، ولا بأس بذلك ، تقول : ترويع ، قتل نفس لم نؤذن بقتلها ، نبي الله موسى - صلوات الله وسلامه عليه - لما قتل رجلاً من شيعة فرعون ، أرقه ذلك ، قال : هذا من عمل المجرمين ، قال : ﴿ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ [القصص : ١٧] ، قال هذا من عمل الشيطان .

هذا هو شأنه ، وما قتل إلا رجلاً من شيعة فرعون ، ثم هو يوم القيامة يقف بين يدي ربه - سبحانه وتعالى - عندما تذهب إليه الخلائق في الشفاعة لها ، في ابتلاء هذا اليوم العظيم يقول: قتلت نفسًا لم أُؤمر بقتلها ، أكانت هذه نفسًا ، أكان لها قيمة ، هذا رجل من شيعة فرعون وعلى الرغم من ذلك تاب وأناب

نبي الله موسى ، ويؤرقه هذا الفعل إذا ما وقفت بين يدي الله ، فنحن نرثى إذا ما قتل كافر دون وجه حق ، ونحن نخطاه ونجرِّمه ، ونحن أشد تخطأة إذا ما قتل الأمريكان مليون طفل عراقي ، إذا ما أبادوا شعبًا دمروا أُمَّة ، هذه هي عاصمة الخلافة بغداد ، عندما يجيشون لها الجيوش ، عندما يدمرون شيوخًا رُكَّع وبهائم رتع وأطفالاً رضع ، هؤلاء ما يحملون إلا الحقد لهذه الأُمَّة ، نحن بحاجة لأن نستبصر مواضع الأقدام ، حتى لا نكيل بمكيالين ، في الوقت الذي لا يقبل فيه من الآخرين أن يكيلوا لنا بمكيالين ، أو يزنوا بميزانين في تعاملنا مع أنفسنا ومع الدنيا من حولنا .

لابد من الرجوع لكتاب الله ولسُنَّة رسول الله ﷺ ، حتى يصطلح كل فريق على حقه ، والحق مقبول من كل من جاء به ، والباطل مردود على صاحبه كائنًا من كان ، والحق ما وافق الكتاب والسُّنَّة ، والباطل ما خالف ذلك ، هذا هو شأننا .

نقول: شيخ الإسلام حبيب إلى أنفسنا والحق أحب إلينا منه ، ونقر في الوقت ذاته أنه ليس من طلب الحق فأخطاه ،كمن طلب الباطل فأصابه ، وإلا فالغرب وأمريكا يكنون العداوة للمسلمين في شتى بقاع الأرض ، يحرصون دومًا على تطبيق معتقداتهم ، يحملون ديمقراطيات أو يصدرون ثورة نصرانية لهذه الأُمَّة ، صليبية يحرصون على ذلك ، فوجب علينا أن نحذر ، أن نعتز بعقيدتنا ، أن نستمسك بكتاب ربنا وبسُنَّة نبينا -صلوات الله وسلامه عليه- والحذر كل الحذر من أن نكون أشبه بمخالب قطط في أيدي أعداء الإسلام والمسلمين ، حوادث والبعض منا قليل الحيلة ، عنده يأس ، هذا هو شأنه وكأنه رذا ما أراد ن يخدم دعوة ودينًا سيمسك سكينًا أو سيفجر نفسه في أول جندي،أو في أول

عسكري يلتقيه ، سيفجر نفسه في أي سائحة في الوقت الذي يشن فيه الأعداء الحرب تلو الحرب ، يدمرون شعوبًا بأسرها ، يغيرون عقولنا ، يفسدون معتقدها، والبعض منا قليل الحيلة ، عنده يأس وقنوط، عنده تهور واندفاع في غير موضعه، وكأن إرهاب في مواجهة إرهاب ، وكأن الخطأ يواجه بالخطأ ، محتاجين لإقامة معاني الحق والعدل .

محتاجين للرجوع لكتاب الله ولسُنَّة رسول الله ﷺ حتى يصطلح كل فريق على حقه ، محتاجين لأن ننتقل من مرحلة إلى أخرى وأن نأخذ بأسباب القوة الحقيقة لردع هؤلاء الأعداء ، لا يفل الحديد إلا الحديد ، إذا كانوا يمارسون الإرهاب الأسود ، فنحن محتاجين لأن نمارس الإرهاب بحق وبعدل ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ** ﴾ .

[الأنفال : ٦٠] .

«**والمؤمن القوي خيرٌ وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف**» (١) ، وفي كل الخير نحرص على ما ينفعنا ، والواجب علينا أن ندور مع إسلامنا حيث دار ، بحيث ننتقل من ضعف إلى قوة ، ومن قوة إلى قوة ، إذا كان الغرب يرهبنا ، يعمل بمسالك الإرهاب الأسود والعنف، فالواجب علينا أن نأخذ بأسلحة القوة كائنة ما كانت ، حتى وإن كان سلاحًا نوويًا ، حتى وإن كان من أسلحة الدمار الشاملة التي يتحدثون عنها ، كل صور القوة كائنة ما كانت ، لابد من الأخذ بها لإرهاب لأعداء الإسلام والمسلمين، لردع عدوانهم على المسلمين هنا وهناك .

سُنن كونية تتطابق مع السُنن الشرعية وإلا فالقطة إذا ما أراد أحد أن يهجم على صغارها ، على أولادها تجدها تنتفض ، تحاول دفعه ، تقوم بخدشه ، هذا

---

(١) مسلم وأحمد وابن ماجة .

هو شأن القطة على قلب حيلتها ، على ضعفها ، أفتستكين أُمَّة ورثت خير القرون .

ورثنا هَـذه الدُّنيا قُرُونًا وسادَهَا جُدودٌ خالدونَ
وسطَّرن صَحَائِفَ من ضياءٍ فما نَسِيَ زَمانٌ وما نَسينَا

محتاجين للعودة لكتاب الله ولسُنَّة رسول الله ﷺ ، حتى يعود لنا عزنا ومجدنا ، حتى نكون غصة في حُلُق هؤلاء ، نريب أعداء الإسلام والمسلمين لمصلحتهم وردعًا لعدوانهم ، لبغيهم ، ردعًا لإرهابهم ، فلا يفل الحديد إلا الحديد ، ولا سبيل لتحقيق ذلك إلا بالعودة الصادقة لكتاب الله ولسُنَّة رسول الله ﷺ ، أن نستمطر رحمة ونستدفع نقمة ، أي نغتر بإسلامنا ، أن نعتز بديننا ، ليس ما عندنا ما نتوارى به خجلاً ، ومن كان الله معه ، فمن عليه مع الفئة التي لا تغلب والحارس الذي لا ينام والهادي الذي لا يضل : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ** (١٢٨) ﴾ [النحل :١٢٨] .

الإرهاب تهمة كل عصر :

لماذا تلكأ الغرب؟ ، ولماذا لم يتجاوب الأمريكان مع مبادرة مكافحة الإرهاب ؟، مع عقد مؤتمرٍ؟،تكون الإجابة ببساطة شديدة،لأنه أُس وأساس الإرهاب الأسود ، يمارسونه مع الشعوب المسلمة ،يدمرون شعوبًا بأسرها، دون وجه حق، لا لسبب ، إلا أن نقول : ربنا الله ، هذه هي تهمة المسلمين في كل عصر ووقت ؛ خذ الشأن والحال ، اقرأ الوضع على ضوء ما جاء في كتاب الله وفي سُنَّة رسول الله ﷺ ﴿ **وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** (٨) ﴾ [البروج: ٨] .

قالوا عن نبيّ الله لوط : ﴿ أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [النمل : ٥٦] .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [إبراهيم : ١٣-١٥] .

لماذا قتلوا النساء ؟ ، قتلوا الأطفال ؛ قتلوا عبد الله الغلام في قصة أصحاب الأخدود ، لماذا فعلوا ذلك ؟ ، إلا النكاية في الإسلام وأهله .

حرب عقائدية ، لابد من قراءة الواقع من حيث هو واقع ، ضاقت صدورهم حتى بالأسماء الإسلامية ، في بلغاريا شرعوا في تحويلها ؛ كانوا إذا ما وجدوا ورقة مصحف مع مسلم علقوا له المشانق ، كان هذا هو شأنهم وحالهم ما نتكلم عن محاكم التفتيش ، ما نتكلم حتي عن نكاية في أنفسهم ، هذا هو شأنهم مع بني جنسهم لا يعرفون إلا العنف ، ما يعرفون إلا الإرهاب الأسود ، قال سبحانه : ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ [المائدة : ١٤] .

تقرأ وتطالع عن مائتين وخمسين منظمة إرهابية أمريكية تزرع العنف في أمريكا ، وما أحداث الهيبز وغيرهم منكم ببعيدة ، هذا هو شأنهم ، يمارسون العنف والإرهاب حتى مع بني جنسهم ، تقرأ وتطالع عن الجيش الإيرلندي ، تقرأ وتطالع عن المافيا وغير المافيا ، هذا هو شأنهم ، هذا هو حالهم ، قد يتقاتلون مع بعض البعض ، فماذا سيصنعون مع المسلمين ؟ .

اقرأ ما يحدث في الشيشان ، اقرأ وكيف يبيدون شعبًا مسلمًا ، ويتواطأ الغرب مع الروس ، ما يرفعون رأسًا ، ما يتكلمون بكلمة ، ونفس القضية هي هي

مع المسلمين في فلسطين كان وعد بلفور ، وعد من لا يملك لمن لا يستحق ، وكانت التقسيمات والمعاهدات فيما بينهم لتقسيم المسلمين ، معاهدات « سايكس بيكو » وغيرها ، شنٌّ للعدوان الثلاثي على هذه الأُمَّة ، حدود مصطنعة ، سياسات فرق تَسُد ، زرعوا شرائعهم في وسط المسلمين ؛ هذه شريعة فرنسية ، هذه شريعة انجليزية ، هذه شريعة هولندية ، حتى لا تقوم لهذه الأُمة قائمة ، بماذا تسمى كل هذه الأفاعيل؟ ، إلا أنها صور من صور الإرهاب الأسود، ثم هم يكرسون هؤلاء اليهود الذين يدمرون البلاد والعباد ، متى أقاموا حقًا وعدلاً .

دمروا الإسلام وأبيدوا أهله ، شعارهم :

والبعض يتوسم الحماية من الذئاب ؛ عندما يرعى الذئاب الغنم ، هذا لا يليق بعاقل ، فضلاً عن مسلم ، أبصر على ضوء إسلامه من العدو ومن الصديق، الواجب علينا أن نقرأ وإلا فالأندلس كانت ، ثم اليوم كشمير ، وغداً جنوب السودان ، وجنوب الفلبين ، هذا هو شأنهم وحالهم ،وقرارات يصدرونها في التوِّ واللحظة إذا كانت على حساب الإسلام وأهله ، وعندهم معتقد يرفعون الرايات، وعندهم عنصرية ، عندهم همجية ، عندهم إرهاب أسود ، قام « أريان الثامن » في الحروب الصليبية يعدهم المغفرة ، يعدهم الجنة ، إن هم دمروا الإسلام وأهله ، قال : دمروا الإسلام ، أبيدوا أهله ، كانت هذه هي النعرة ، وذكروا في ذلك أنها كانت إرادة الرب ، أمرهم بتقليص القبر المقدس ، لم ينسوا العداوة لهذه الأُمَّة ، بل بعد موقعة حطين مات « صلاح الدين الأيوبي » ، ورجع الجنرال « غودو » إلى دمشق ، وركل قبر صلاح الدين الأيوبي بقدمه ، وقال : ها قد عدنا

يا صلاح الدين .

هذا هو شأنهم وحالهم ، لابد من التعرف على الواقع من حيث هو واقع ، لابد من قراءة واعية لما يحدث ويدور ، محاولتهم الدائبة والدائمة لتغيير مناهج الإعلام والتعليم ، حتى تخطوا مخططاتهم ، حتى تصادم ما جاء في كتاب الله ، وفي سُنَّة رسول الله ﷺ ، تمجيدهم للنعرات العفنة كالبهائية وغير البهائية ، وزرع الفرقة في أوساط هذه الأُمَّة ، تغيير للهوية ، يفرضونه هكذا ، وإلا فما لم يكن معهم ، فهو ضد إرادة الرب ، يريدون تصدير الثورة لنا ، عندنا معتقد ، عندنا دين ندين به لله ـ تبارك وتعالى ـ عندنا عقيدة لابد من حمل رايتها ، لابد من الاعتزاز بها ، لابد من القيام لله بحقه ليحيا من حيٍّ عن بينه ويهلك من هلك عن بينه .

تاريخ الغرب أسود ، يطول شرحه وذكر المفردات فيه ، وحاضرهم كماضيهم وكمستقبلهم أيضًا ، وإلا فهم سيقاتلون المسلمين في حديث بن مسعود رضي الله عنه : « قام رجل أعرابي ليس له هجِّيري إلا بابن مسعود ، قد قامت الساعة ، وكان قد هاجت ريح حمراء من الكوفة ، فقال له ابن مسعود ـ رضوان الله عليه ـ : لن تقوم الساعة حتى لا يقسم ميراث ، ولا يفرح بغنيمة ، ثم أشار إلى جهة الشام عدوهم ، يجمعون لنا ويجمع أهل الإسلام لهم ، وذكر الحرب التي ستدور بين المسلمين وبين الروم ، يحدث بسببها مقتلة عظيمة ، يتعادُّ بنو الأب بعدها ، وكانوا مائة ، فلا يجدوا إلا واحدًا ، فكيف يقسم ميراث وكيف يفرح بغنيمة ، فحربٌ ستدور مع الروم ، وحرب ستدور أيضًا مع يهود [١] ، والنَّبيّ ﷺ قال : **«لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود ، فيقتلهم المسلمون ، وحتى**

---

(١) مسلم وأحمد ، والحديث مختصر من لفظ مسلم .

يختبيء اليهودي من وراء الحجر والشجر ، فيقول الحجر والشجر : يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي خلفي فتعالى فاقتله ، إلا الغرقد ، فإنه من شجر اليهودي »(١) .

سيفتح بيت المقدس بإذن الله ، ولن نقوم الساعة حتى ينتشر هذا الدين في أقطار الأرض ، فالمستقبل لدين الله بغلبته وظهوره على الأديان كلها ، ستفتح رومية وهي روما عاصمة إيطاليا اليوم ، سُئل عبد الله بن مسعود : الرومية تُفتح أولاً ؟ ، أم القسطنطينية ؟ ، فأتى بصندوق حلَق ، فتحه وأخذ ورقة وقال : سُئِل رسول الله ﷺ القسطنطينة أولاً أم رومية ؟ ، فقال : « **القسطنطينية تُفتح أولاً** »(٢) ، وقد فتحت بعد ثماني مائة سنة من إخبار الرسول ﷺ ، وستفتح رومية وهي روما ، عاصمة إيطاليا اليوم : ﴿ **وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ** ﴿٨٨﴾ ﴾ .

[ص : ٨٨] .

وهذا يستلزم أن يعود المسلمون أقوياء في معناوياتهم ومادياتهم وسلاحهم سيتحقق ذلك ، وكل أخبار الصادق المصدوق ـ ﷺ ـ لابد وأن تقع وفق ، ما قال : ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ : ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ** ﴿٣﴾ **إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ** ﴾ .

[النجم : ٣-٤] .

أما هذه الأفعال البائسة وهذه الأفعال اليائسة ؛ يفجر الإنسان نفسه في أول سائحة يلتقيها أو في عكسري أو جندي ، نبرأ بأنفسنا وبالخلق من حولنا ، أن يمارسوا مثل هذه السَّفه ، لمناقضته لكتاب الله ولسُنَّة رسول الله ﷺ ، لمناقضته ولمنافاته للمصالح العاجلة والآجلة ، نعطي هؤلاء الذريعة ، للفتك بالإسلام

(١) البخاري ومسلم ، واللفظ لمسلم .
(٢) أبو داود وأحمد ، واللفظ لأحمد ، وصححه الألباني ـ رحمه الله ـ .

وأهله بالصد عن سبيل الله ، أفعال يائسة لا مصلحة فيها لا في العاجل ولا في الآجل ، أن يفجر الإنسان نفسه في الوقت الذي يدمر فيه الأعداء الأُمَّة ، أُمَّة بأسرها ، يفتكون بعقيدتها ، يفتكون بأبنائها ، يهتكون أعراض نسائها ، محتاجين للأخذ بالسُنن الكونية وبالسُنن الشرعية ،كان النَّبيّ ﷺ لربما جاءه البعض يقول :ألا تستنصر لنا ؟!، ألا تدعوا لنا ؟!، فيغضب ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ، ويقول : « **كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض ، فيجعل فيه ، فيجاء بالمنشار ، فيوضع على رأسه ، فيشق باثنتين وما يصده ذلك عن دينه ، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب ، وما يصده ذلك عن دينه ، والله ليُتمَّن الله هذا الأمر حتي يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون** » (١) .

والعجلة هي هي ، وكان البعض ما يملك إلا صياحًا في مواجهة المدافع الدبابة أو أن يقتل نفسه بخنجر ، يفجر نفسه لأول وهلة وكأنه الإستسهال لنيل الشهادة ولدخول الجنة ، محتاجين للتفقه في دين الله بحيث ننتقل من ضعف إلى قوة ، ومن قوة إلى قوة ، هذه أُمَّة يتربص بها الأعداء الدوائر ، فالواجب علينا أن نرتفع إلى مستوى إسلامنا ولمستوى ديننا ، نحب الخير لهم ولذلك سنقول لهم : أسلموا وجوهكم لله من قبل أي يأتي يوم لا مرد له من الله .

سنقول للغرب ولأمريكا ، كما قال النَّبيّ ﷺ لهرقل :« **أسلم تَسلم ، يؤتك الله أجرك مرتين** » (٢) .

نحن نحتاج إلى توجيه دعوة ، والأخذ بأسباب القوة ، كائنة ما كانت عودة

---

(١) البخاري وأبو داود وأحمد ، واللفظ للبخاري .
(٢) سبق تخريجه .

لدين الله يتحقق الأمن والأمان ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢) ﴾ [الأنعام : ٨٢] .

وقال سبحانه : ﴿ لإِيلافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش] .

ما يتحقق الأمن ولا الأمان إلا بإيمان ، إلا بالإسلام الوجه لله ، فإن أردنا خيرًا، وإن كنا دعاة هدى وخير، فلابد من القيام بواجب الدعوة إلى الله - تبارك وتعالى - ومراعاة لحال الضعف ولحال القوة ، أن ندور مع إسلامنا حيث دار ، لا أن نحدث النكاية في أنفسنا والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين ، لابد من التعرف على السُنن الكونية ، وعلى السُنن الشرعية ، بهذا ننتصر على عدو الله وعدونا ، حتى وإن كنا قلة ، حتى وإن كنا أذلة ، ينصرنا سبحانه نصرًا عزيزًا مؤزرًا ، كما نصر أوائلنا : ﴿ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال : ٦٢] .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) ﴾ [آل عمرن : ١٢٣] .

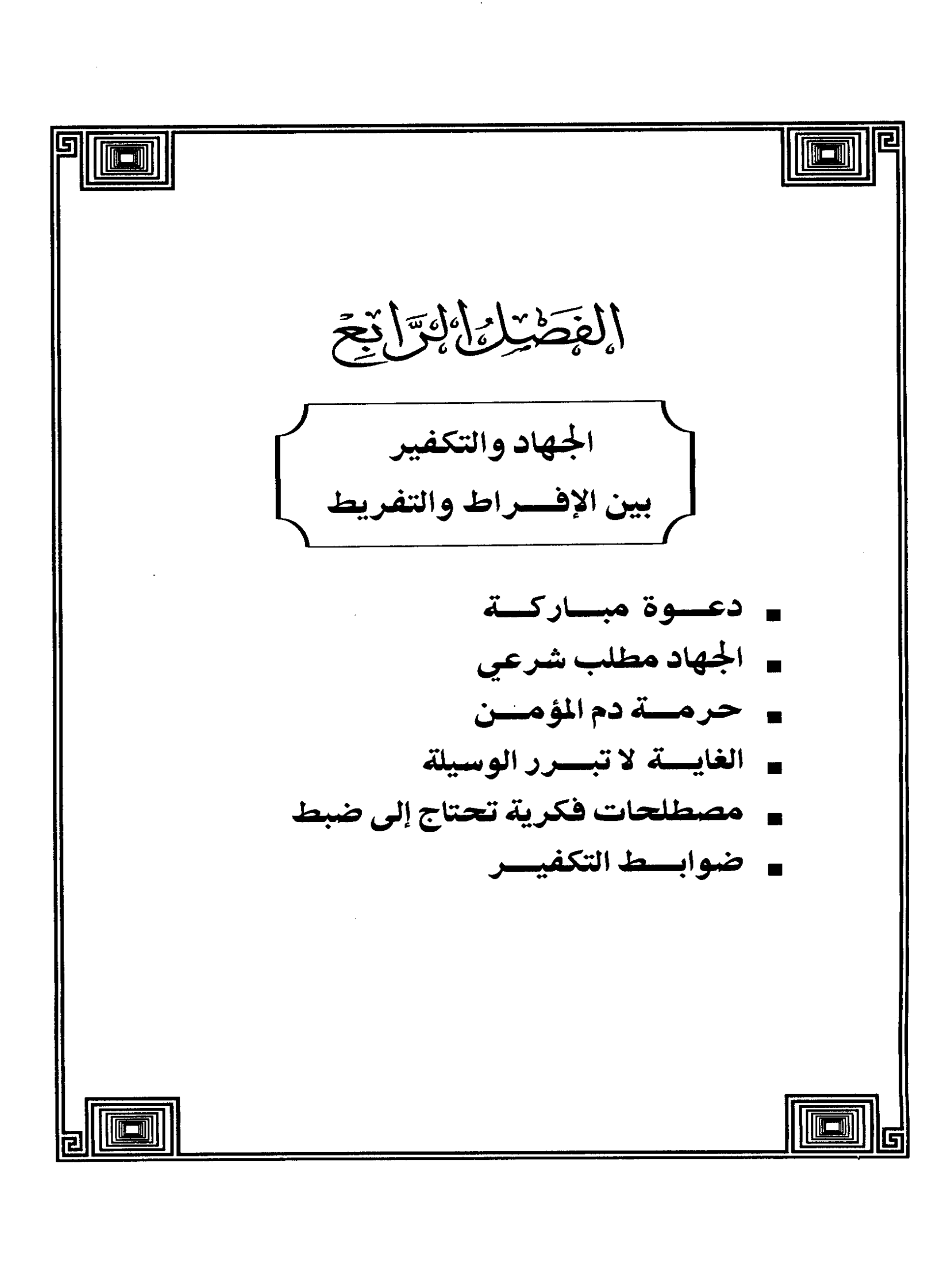
وقال تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦) ﴾ [الأنفال : ٢٦] .

وقال تعالى : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦) ﴾ [القصص : ٥-٦] .

لما أخذوا برأس الأمر جعلهم سبحانه رؤسًا ، لما أخذوا بالصبر واليقين جعلهم

ـ جل في علاه ـ أئمة ، والأمور كل الأمور على ما عند ربك ﴿ **وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا** ﴾ [آل عمران : ١٢٠] ، حتى وإن كان الأمريكان والغرب عندهم تصليب ، عندهم قوة نووية ، لن يضرنا كيدهم إن نحن اعتصمنا بحبل الله المتين ، وبذكره الحكيم ، وصراطه المستقيم ، وقمنا لله بحقه نصحًا وبيانًا ، وأخذنا بأسباب القوة الحقيقية ، ينصرنا الله سبحانه ﴿ **وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ** ﴾ [آل عمران : ١٢٦ – الأنفال : ١٠] . هو الذي نصر عبده ، وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده .





الفصل الرابع

الجهاد والتكفير
بين الإفراط والتفريط

- دعوة مباركة
- الجهاد مطلب شرعي
- حرمة دم المؤمن
- الغاية لا تبرر الوسيلة
- مصطلحات فكرية تحتاج إلى ضبط
- ضوابط التكفير

الفصل الرابع

الجهـــاد والتكفيـــر بين الإفـــراط والتفريـــط

هذا المنهج الذي نتشرف بالانتساب له ، هذا المنهج السلفي ؛ هو منهج تحقيق الأمن والأمان ، هو المنهج الذي يصطلح فيه كل فريق على حقه ، يراد به إقامة خلافة على منهاج النبوة ، هذا المنهج ؛ هو منهج الرجوع لمثل ما كان عليه النَّبيّ ﷺ ، والصحابة الكرام ، بمثابة ميزان وضابط ومقياس ، وعلى ضوءه يتم الفرز والتمييز بين الرث والثمين ، بين السُّنَّة والبدعة ، بين الإيمان والكفر ، بين المحق والمبطل ؛ وكل إنسان يؤخذ من قوله ويُرد ؛ إلا رسول الله ﷺ ، وقد أُمرنا بالرجوع لكتاب الله ولسُّنَّة رسول الله ﷺ ، بفهم أعلم الناس بالكتاب والسُّنَّة ، وما السلف إلا الصحابة ومن تابعهم بإحسان من سائر القرون الخيرية ، وأئمة الدين العدول، والسلفيون هم الذين اتبعوهم على هذا الفهم ليومنا هذا ، من أهل السُّنَّة والجماعة ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ .

[آل عمران : ١٠٦] .

قال العلماء : تبيضُّ وجوه أهل السُّنَّة والجماعة ، وتسود وجوه أهل البدعة والافتراء ، بشرنا ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بطائفة ظاهرة على الحق ؛ هذه الطائفة لن تخلوا منها الأرض ، لن تخلوا الأرض من قائم الله بحجة ؛ ينفون عن دين الله تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين .

قال رسول الله ﷺ : « **لا تزال طائفة من أُمَّتي ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خالفهم أو خذلهم ، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك** » (١).

هذا المنهج الإيماني هو الذي يتحقق به العدل والاعتدال ، والإتزان والتوازن وسطية وجد في هذه الأمة بين الملل ؛ وكذلك كان أهل السُّنَّة والجماعة ، فإن الفرق منهم الغالي والجافي ، منهم من سلك مسالك الإفراط، ومن سلك مسالك التفريط، وعلق ذلك بالجهاد وبقضايا التكفير وبغير ذلك من القضايا ، ونحن عندما نسمع نسبة السلفية لتكفيريه أو جهاديه ، لابد من وقفات يصطلح فيها كل فريق على حقه لابد من ميزان وضابط نقيس به الأقوال والأفعال ، نقيس به النفس والدنيا من حولنا ، فما وافق الحق قبل ، وما خالف الحق مردود على صاحبه كائنًا من كان ؛ شيخ الإسلام حبيبٌ إلى أنفسنا ، والحق أحب إلينا منه ، والعدل أساس الملك ، وبه قامت السماوات والأرض : ﴿ **وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ** ﴾ [المائدة : ٨] .

والعدل ما يعرف إلا بالرجوع لكتاب الله ولسُّنَّة رسول الله ﷺ حتى تتحقق فينا معاني ظهور الحق ، حتى نكون من الطائفة الظاهرة الناجية المنصورة ، لابد من رجوع لكتاب الله ولسُّنَّة رسول الله ﷺ ، وحذر متأكد من مسائل الغلو ومسائل الجفو ، وأنت عندما تنظر في دنيا الناس تجد كثير من هذه الصور التي تتطلب مراجعة وفق هذا المنهج الإيماني الذي نتشرف بالإنتساب له، ومن رحمة الله ومن فضله علينا وعلى الناس أن كنا من أوائل من رد على شبهات الغلو في التكفير ، وكنا من أوائل أيضًا من رد على مسائل العنف التي قصدت الأبرياء والآمنين ، والتي قصدت معصومي الدم . كان لابد من تمييز .

(١) مسلم والبخاري ، وابن ماجة وأحمد والترمذي ، واللفظ لمسلم مجموعًا من روايتين .

دعـــوة مباركـــة :

ومن رحمة الله تبارك وتعالى أن خطت هذه الدعوة خطوات مباركة بفضل الله ؛ تجنبت دخول البرلمان ، تجنبت مسالك العنف ومسالك التكفير ، فبورك في هذه الدعوة وانتشرت في الآفاق ، والفضل كله بيد الله : ﴿ **وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ** ﴾ [هود : ٨٨] .

كان لابد من بصيرة ،كان لابد من رجوع لكتاب الله ولسُنَّة رسول الله ﷺ ، وإلا فالخفة قد تضر أكثر مما تنفع ، والتهور والاندفاع في غير موضعه ؛ ما هو إلا تهور ، وكذلك الرجوع إلى الوراء بزعم الأمان ، فقد يكون جبنًا مزمومًا ، ولذلك كان لابد أن يصطلح كل فريق على حق ، لابد من نية وصحة في الجهاد وغيره : ﴿ **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨)** ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

لم يكن بوسعنا ولا بوسع مخلوق أن يبطل الجهاد المشروع الوارد في كتاب الله وفي سُنَّة رسول الله ﷺ ، قضية من جملة المسلَّمات ، بل الجهاد مفروض ، وموجود حتى عند أهل الملل ، موجود عندهم فكيف السبيل لإبطالة ، أو تحسس البطح على الرأس إذا ما ذكر ، أن نتوارى خجلاً من هذه الكلمة ، أو ننسب لهذا الإيماني إرهاب وتتطرف ، كل ذلك لن يقبل ، كان لابد من رد الحق لإنصافه ، ووضع النقط على الحروف ، وإلا فقد توالت الآيات على رسول الله ﷺ : ﴿ **وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً** ﴾ [التوبة :٣٦] .

وقال تعالى : ﴿ **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا** ﴾ .

[البقرة : ١٩٠] .

والنَّبيّ ﷺ جاهد المشركين وجاهد أيضًا المنافقين وكانت المرحلة المكية لا تخلوا من جهاد ، وجهاد الكلمة هو من أوقع صور الجهاد ، نزل بشأنه قوله سبحانه : ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ** (٦٩) ﴾ . [العنكبوت : ٦٩] .

كلمات أوقع من السيوف ؛ جاهد المشركين بالسيف والسنان ، وجاهد المنافقين بالحجة والبيان ، ولكل مقام مقال ، ولنا في رسول الله ﷺ أُسوة حسنة ، ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا** (٢١) ﴾ [الأحزاب : ٢١] ، وهاجر - صلوات الله وسلامه عليه - من مكة إلى المدينة ، ما كانوا يبيتون إلا في سلاحهم ، وما فتحت المدينة إلا بالدعوة إلا بالكلمة ، ولا حجر أبدًا على سعة رحمة الله ، كم من بلد فتحت بالقرآن ، وكم من بلد فتحت بالسيف والسنان ، وحسبك أن تكون مطيعًا لله ، مُستنًا برسول الله ﷺ ، وتوالت الأحكام ، وفتحت الأقطار ، ودخل الناس في دين الله أفواجًا ، وأخبر - صلوات الله وسلامه عليه - بفتح القسطنطينية والرومية ، بفتح قصور كسرى وقيصر ، وقال : « **ولتُنفقن كنوزهما في سبيل الله** »[1] ، فكانت الفتوحات الإسلامية ، وكانت الأحكام الإيمانية .

الجهاد مطلب شرعي :

كان لابد من التعرف على طبيعة الجهاد الشرعية ، والتفريق بين أنواعه المختلفة ، جهاد دفعٍ ، وجهاد طلبٍ ، دفع كفار عن ركن ديار المسلمين ، جهاد متعين ما ينكره حتى الدساتير الوضعية الموجودة ، ما تنكره ، وإن كانت الناس

---

(١) سبق تخريجه .

سلكت مسالك آخر مع الإصطلاح ، مع التعبير ، سار البعض يتكلم بالكفاح والنضال وبالمقاومة المشروعة ، والثورة الحمراء تارة ، والثورة البيضاء تارة أخرى ، مراوغات على مثل هذا النحو ، وإلا فالمسلم يسلك للأمر من أيسر طريق ، يسلك ما دله عليه كتاب ربه وسُنَّة نبيه - صلوات الله وسلامه عليه - ، جهاد مشروع ، وإلا فماذا تصنع حتى مع أعداء الإسلام والمسلمين ، إذا ما أمت روح الجهاد في البلاد والعباد ، أعداء يتربصون بك الدوائر وإلا ، فانظروا ماذا يحدث في العراق وفي أفغانستان وفي فلسطين؛ داهموا البلاد والعباد، وروعوا الآمنين ، وبزعم نشر الديمقراطية تارة ، وتلويح برايات صليبية تارة أخرى ؛ وكان هذا هو شأنهم : ﴿ **قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ** ﴾ .

[آل عمران : ١١٨] .

قال سبحانه : ﴿ **وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ** ﴾ [فاطر : ١٤] .

وقال تعالى : ﴿ **وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا** ﴾ [البقرة : ٢١٧] .

ماذا تصنع لو داهم هؤلاء الكفرة الفجرة البلاد والعباد ، لو روعوا الشيوخ الركع ، والبهائم الردع ، والأطفال الرضع ، هل ستمسك أنت بغصن الزيتون في مواجهتهم ؟ ، كان لابد من إعداد : ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ** ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

« **والمؤمن القوي خيرٌ وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف** » (١) .

ماذا يكون الشأن والحال لو جيشت أنت جيوشًا ووصلت إليهم تنشر فيهم إسلامك ؟! ، هذا خيرٌ لهم لو كانوا يعلمون ، ماذا يكون الشأن والحال ، لو

(١) مسلم وأحمد وابن ماجة .

صنعنا نفس الصنيع ؟ ، وإلا فهم داهموا الديار ، ماذا نصنع لو داهمناهم نحن؟ وهل عندما تأخذ بأسباب القوة لدفع هذا العدوان يستريب في ذلك عاقل ؟! .

كان لابد من راية مرفوعة ، لا يصح أبدًا أن تطمس ، والجهاد ماضٍ في الأمة لا يبطله جور جائر ، ولا عدل عادل ، حتى يقاتل آخر رجل من الأمة المسيح الدجال ، وما ترك الجهاد قومٌ إلا ذلوا ، عندما نترك هذا الجهاد الإيماني يكون نصيبك المزلة والمهانة حتمًا لا محالة ، ضاعت الأندلس ، بلادٌ وأي بلاد : ﴿ **وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ** (٢١٦) ﴾ [البقرة : ٢١٦] .

كنا بحاجة إلى بصيرة في الأمر كله ، فرز على ضوئه تميز بين الغث والثمين ، بين هذا الغالي وهذا الجافي ، لا يسع أن تترك معنىً شرعيًا ، وإلا فستكون النتيجة مزلة ومهانة ، ورجوع إلى وراء ... وراء : « **إذا تبايعتم بالعينة ، ورضيتم بالزرع ، وتركتم الجهاد ، واتبعتم أذناب البقرة ، سلط الله عليكم ذلاً ، لا ينزعه عنكم حتى تراجعوا دينكم** » [١] .

إن تركت أنت الجهاد كانت النتيجة أن يتسلط الأراذل ، وكما حكى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ : « **يوشك أن تتداعى عليكم الأمم ، كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها** ، قالوا : أمن قلةٍ يومئذٍ نحن يا رسول الله ، **قال : بل أنتم يومئذٍ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله المهابة من قلوب أعدائكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن** ، قالوا : وما الوهن يا رسول الله ، قال : **حبُّ الدُّنيا وكراهية الموت** » [٢] .

---

(١) أبي داود وأحمد ، وصححه الألباني ـ رحمه الله ـ .
(٢) أبي داود ، وأحمد وصححه الألباني وأحمد شاكر .

ليس في دين الله ما نتوارى به خجلاً ، كان لابد من النطق بكلمة الحق ، وكان في الوقت ذاته لابد من فرز ، وإلا فالبعض ألصق بالجهاد ما لا يصح وما لا يجوز ، حماسة كان لابد من ضبطها بكتاب الله وبسُنَّة رسول الله ﷺ .

كان ابن مسعود رضي الله عنه يقول لإخوانه ولأصحابه : « أنتم في زمان خيركم المسارع في الأمر ، وسيأتي على الناس خيرهم المتوقف المتثبت لكثرة الشبهات ، إذا كنا نقول الكلام الأول ، فنحن الذين نقول : لا يصح ؛ ولا يجوز التعرض للأبرياء حتى وإن كانوا عصاة حتى وإن كانوا مذنبين ؛ يصطلح كل فريق على حقه ، كنا نميز ونقول لا يصح أن تكون قاضيًا وجلاداً ، ومجنيًا عليك في نفس الأمر ، روح المسلم غالية ولها قيمة كبيرة ، كنا نميز ونرد بعض الشبهات التي يتذرع بها البعض كشبهة التترس وغيرها من الشبهات؛ شبهة تكفير المجتمعات، شبهة الحكم على الديار ؛ بأنها ديار كفر أو ديار حرب ما غلبتنا الحماسة، ولله الحمد والمنّة ؛ وما كانت ردودنا عبارة عن حماسات فارغة ، لا تمت للأمر بصلة ، بل تزيد الطين بله كما يقولون ،كان لابد من رد منهجي، لابد من رد شرعي ، كان لابد من استيعاب للشبهات، حتى يصطلح كل فريق على حقه .

حرمـــة دم المؤمـــن :

كان ابن عباس رضي الله عنهما ينظر إلى الكعبة ويقول : إن الله عظَّمكِ وحرمكِ وشرفكِ ، وإن المؤمن أعظم حرمة عند الله منكِ، لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم.

حيطة لابد منها ، وإلا فالشريعة فرقت بين القتل العمد وشبه العمد ، وقتل الخطأ ، ولما تنظر أنت في القتل الخطأ ، ستجد أحكام مترتبة ؛ صيام شهرين

متتابعين كفارة ، وبالإضافة إلى ذلك دية تدفع إلى أهله : إن كان مسلمًا ذكرًا فمائه من الإبل ، وإن كانت امرأة فخمسين من الإبل ، الأمر الذي يستدعي الحيطة وعدم جرأة على الفتوى ، كان لابد من حطية وورع .

كان من العلماء يقول : ها أنا ذا يتَعلمُ مني ما تضرب به الرقاب وما تستحل به الفروج وما تؤخذ به الحقوق ، أما كنت عن هذا غنيًا ﴿ **وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ** ﴾ [النحل : ١١٦] .

كانت الفتوى لربما عرضت على صحابة رسول الله ﷺ ؛ كلهم يود لو أن أخاه كفاه ، مسائل تعرض ، لو عُرِضَت على عمر بن الخطاب رضي الله عنه لجمع لها أهل بدر ، فلا يصح الجرأة ﴿ **وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ** ﴾ [النساء : ٨٣] .

المسلم له حرمة كبيرة عند الله تبارك وتعالى، لماذا يتأخر الفتح عامين كاملين، تأخر بسبب وجود بعض المستضعفين في مكة ، يقول سبحانه : ﴿ **لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا** ﴾ [الفتح : ٢٥] .

أي أنكم إذا دخلتم مكة وكانت الحرب ؛ ستقتلون المسلم مع غيره ، وهذا لا يجوز ، حرمة المسلم كبيرة عند الله - تبارك وتعالى - ، قال : ﴿ **لَوْ تَزَيَّلُوا** ﴾ أي لو تميزوا ﴿ **لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا** ﴾ بل بينت الآيات أنهم لو دخلوا مكة عامئذ لانتصروا على أهلها ﴿ **وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (٢٢)** ﴾ [الفتح : ٢٢] .

مكثت الأصنام بالكعبة عامين كاملين لوجود بعض المسلمين المستضعفين بمكة ، كنا بحاجة لردود شرعية ، بعيدًا عن الحماسات من هنا ومقابلتها بحماسات من هناك ، هذا لا يخدم القضية ، لابد من ردود شرعية ، وهذه

الدعوة المباركة ، هي دعوة تحقيق الأمن والأمان الحقيقي ، لا يتوهم في العاجل والآجل ما حال الوضع في القوم، وإلا فأول ما يُسأل عنه العبد يوم القيامة ؛ الدماء ، شأنها خطير وكبير وعظيم ، وهذا فيما يتعلق بحقوق العباد ، بل نحن لا نحصر حتى المسألة على المسلمين ، نعديها للمستأمنين ، للمعاهدين ، إعطاء كل ذي حقٍ حقه ، وإلا فالإنسان لو دخل الديار بأمان ، لابد من المحافظة على أمانه ، وإلا لا يحل في ديننا الغدر ، دين متين وقويم ، لابد فيه من بصيرة ، مسائل كثيرة وعديدة كان الواجب علينا أن نستبصر بها ، وإلا فمجرد الحماسة قد تجر إلى تأخر الدعوات وتحيل البلاد إلى بركة من الدماء ، إلى فتنٍ ، ما يخرج الإنسان من فتنة إلا ويواجه فتنة أخرى ، لا يستطيع رفع رأسه ، شبهات تجر الدعوة إلى وراء ، كلنا بحاجة لبصيرة وإلا فالقتال في الفتنة لا يجوز .

نحتاج لإبلاغ الحق للخلق ، نحتاج للرجوع لكتاب الله ولسُنَّة رسول الله ﷺ ، نحتاج إلى جهاد متميز ، ما يسع مخلوقًا إنكاره ، صور منتشرة ، صور مردودة على أهلها ، على أصحابها ، ما العبرة بها ، وإلا ففي أخذ الجرة من وراء الفتاوى بتبتيل النفس في غير موضعه من البلاء ما الله به عليم ، وإلا فهذا الذي يفجر نفسه في طفلة أو شيخ كبير، أو امرأة ضعيفة ، أو عسكري أو شرطي ، نقول له ما الذي أديته ؟ ، ما هو الغرض من وراء ذلك ؟ ، وهل الذين أباحوا تفجير النفس أباحوه بمثل هذه المعاني ؟، حتى وإن أبحناه ، وإلا فنحن نفرق بين أن يقتلك العدو ، رجاء إحداث نكاية فيهم ، وبين أن تقتل وتنسف نفسك وخصوصًا لغير مصلحة شرعية ، وشرع الله مصلحة كله ، وحيث ما كانت المصلحة ، فثمَّ شرع الله .

لم يقتل النَّبي ﷺ عبد الله بن أُبي بن سلول ، إذ أنه لو قتله لقالوا : محمد يقتل أصحابه ، وهو يستحق القتل ، ولكن كان لابد من نظر في عواقب الأمور ، كان لابد من ضوابط شرعية للإنكار ، تكلمنا عن الانقلابات وغير الانقلابات في حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه يقول : « **بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره وعلى آثرة علينا ، وعلى أ ن لا ننازع الأمر أهله ، إلا أن تروا كفراً بواحًا ، عندكم من الله تعالى فيه برهان ، وعلى أن نقول الحق أينما كنا ، لا نخاف في الله لومة لائم** »(١) .

العدل والاعتدال مطلوب ، ضوابط شرعية ، ما يؤخذ الإنكار ولا الجهاد من مجرد حاسات وإلا فنخشى أن نتشبه بالخوارج الذين خرجوا يومًا يقاتلون صحابة النَّبيّ ﷺ ، خاطبهم الراسلي خطبة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب ، وحذرهم فيها من الدنيا ورغبهم في ما في الآخرة ، وحثهم فيها على الجهاد في سبيل الله ثم خرجوا يقاتلون ثم خرجوا يقاتلون صحابة رسول الله ، تركوا الأوثان وقاتلوا أهل الإسلام ، في أي شيء وفي أي مجال ستحدث النكاية محتاجين لبصيرة ضوابط شرعية ، تكلم العلماء على ضوابط الإنكار ، قالوا : ما يصح أن تنكر المنكر بمنكر أعظم ، لا يجوز لك أن تنكر المنكر بحيث تثبت هذا المنكر وتأتي بمنكر آخر ، ما يحل لك أن تتلف النفس في غير مصلحة شرعية ، ما يجوز لك أن تتسبب الأذى والنكاية في المسلمين ؛ في الأهل والإخوان والأصدقاء ، نية وصحة أو إخلاص ومتابعة ، وإلا فالإنكار الذي يجب في موطن قد يحرم في موطن آخر وحسبك أن تدور مع إسلامك حيث دار ، ضوابط شرعية إن اشتبه على البعض ، قول عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه لأبي الياج الأسدي : ألا

(١) البخاري ومسلم وأصحاب السُنن ، واللفظ مجموع من حديث البخاري .

أبعثك على مثل ما بعثني عليه رسول الله ﷺ ، ألا تدع قبرًا مشرفًا إلا سويته ، ولا صورة إلا طمستها ، كان لابد من بصيرة وإلا فعلي هو أمير المؤمنين يومئذٍ وأبو الياج الأسدي هو رئيس شرطته ، أي أن المصلحة متحققة ، والمضرة والمفسدة مندفعه ، أما إن خلت المسألة من المصلحة وانتقلت إلى المفسدة فليست من شرع الله في شيء .

وطلب الشهادة لا يكون بأن تسلك غير مسالكها ، وإلا فالجهاد له سبيله وصراطه ، لابد من بصيرة في الأمر كله ، أما أن نطيح ونطيش عقل العبد فيتلف ويدمر نفسه طلبًا للشهادة . محتاجين لأن نقف في مظانها دون إفراط أو تفريط، دون غلو أو جفو . طلب الشهادة مشروع ومحمود ، « **ومن سائل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه** » (١)، وأرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح من الجنة حيث شاءت ،كلنا ينشدها ، كلنا يطلبها لنفسه ، ولكن ما السبيل ؟ ، ما الطريق ؟ ، جهاد مشروع متميز ، لا مغالطة فيه لا مخالفة فيه ، لا تهور ولا اندفاع في غير موضعه ولا في غير موطنه .

رأى النَّبيّ ﷺ امرأة مقتولة ، قال : « **ما كانت هذه لتقاتل** » ، لماذا قتلت هذه المرأة ؟ ، لما رأها ﷺ مقتولة على مثل هذا النحو ، قال : « **ما كانت هذه لتقاتل** » (٢) ، لما دخلوا سمرقند دون دعوة ، أمرهم عمر بن عبد العزيز أن يخرجوا من البلد ثانيًا ، اشتكى أهلها « قتيبة بن مسلم » القائد الفاتح ، اشتكوه لعمر بن عبد العزيز وأنه دخلها دون إعلام ، فما كان من عمر بن عبد العزيز إلا أن رد الأمر لقاضي البلد ، فاستعلم من قتيبة دخلها دون دعوة ، فأمر عمر

(١) مسلم وأصحاب السُنن واللفظ لمسلم .
(٢) البخاري ومسلم ، واللفظ في سُنن ابن ماجة .

الجيوش أن تخرج من سمرقند ، خرجوا من سمرقند وأسلم أهلها .

الغايـــة لا تبـــرر الوسيلة :

نحن نحتاج إلى بصيرة ، وإلا فالغاية لا تبرر الوسيلة ، غايتنا محمودة ، ووسائلنا إليها لابد وأن تكون مشروعة، والأمر إن لم يتم بك فبغيرك ، قطار ينطلق بأقصى سرعة ، وربك قدير - جل في علاه - قدير ولا يعجزه شيء ، وإلا فالمستقبل للإسلام بغلبته وظهوره على الأديان كلها ، والأمر ما يصح تحجير الواسع فيه ، وكأنها لابد من سيوف بتَّارة تقتل هذا المذنب ، أو تقتلع رأس العاصي ، كل ذلك ما يحل ولا يجوز في دين الله .

نحن نحتاج إلى بصيرة ، أن نسلك ضوابط شرعية في عسرنا ويسرنا ، في إقدامنا وإحجامنا ، حال ضعفنا وحال قوتنا ، لا يصح التهور ولا الإندفاع ولا الجبن ولا الخوف ، عدلٌ تتعرف عليه من خلال هذا المنهج الإيماني الذي نتشرف بالإنتساب له ، هذه دعوة مباركة ، هي دعوة الرجم على الغلاة وعلى الجفاة ما سنستبد لها بديمقراطية ولا صوفية ، ولا نحل من رعاة الفكرية ، وكأنها السبيل للرد أو لإحقاق الحق ، وإحقاق الحق لا يتم إلا بالرجوع لكتاب الله ولسُنَّة رسول الله ﷺ ، أن نكون على مثل ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام ، قومٌ يعملون الحق ويرحمون الخلق، يستمسكون بدين الله وبه يعدلون ، بأمثال هؤلاء يمكّن الله - تبارك وتعالى - دينه الحق الذي ارتضى لهم ، ويبدلهم من بعد خوفهم أمنًا يعبدونه لا يشركون به شيئًا .

مصطلحات فكرية تحتاج إلى ضبط :

عندما يظهر مصطلح « السلفية التكفيرية » و « الجهادية » كان لابد من وقفات ؛ ماذا كان هذا المصطلح ؟ ، وما الذي يراد به ؟ .

هل يراد به التشهير والتشويه بأصحاب ذلك المنهج الإيماني ؟ ، أم هي النتوءات والاعوجاجات التي استلزمت هذا المصطلح على جهة التنقص وعلى جهة الاستخفاف ، وبالتالي لا نلوم إلا أنفسنا ، محتاجين لعدل واعتدال ، وإلا فالحق مقبول من كل من جاء به والباطل مردود على صاحبه كائنًا من كان ، وكما ذكرنا ؛ كنا من أوائل من رد على غلاة التكفير بفضل الله تعالى، هنا وهناك ، وكانت الصولات وكانت الجولات كتابةً وخطبًا ودروسًا ولقاءات في الرد على أمثال هؤلاء ، وكنا نذكر في ما نذكر أن هؤلاء الناس ورثوا الإسلام وجهلوا معانيه ، لم تقم عليهم الحجة الرسالية قيامًا ، يتأكد معه ليحيى من حيٍّ عن بيِّنة وأن يهلك من هلك أيضًا عن بينة ، كنا نذكر هذه المعاني الإيمانية التي يصطلح بها كل فريق على حق ، وإلا فلا يجوز الغلو في التكفير ولا يجوز التكفير بالكبيرة ، ولا يجوز وصف المجتمع بأنه مجتمع جاهلي على سبيل التكفير وإخراجه من الملة ، وحتى بعض من قرأ في بعض كتب أهل العلم عن الدور ؛ دار الحرب ، ودار الكفر ، ودار الإسلام ، كنا نوضح ونفصل ونبين أن حرمة المسلم وأن عصمته معلومة بيقين لا تتهم بإشتباهات ، ولا بمسائل اجتهادية ، حرمته مصونة ، لابد من المحافظة على حرمة المسلم ، وكنا نذكر القضايا الكثيرة ، أن الإنسان يدخل دين الله الإسلام بنطقه الشهادتين ، ثم يُأمر بالتزام الأحكام الشرعية التكليفية ، بل أوضح الإمام أحمد وبوَّب باب : صحة

الإسلام مع الشرط الفاصل ، فقد اشترط البعض ترك الجهاد ، وقَبِلَ منهم النَّبيّ - عليه الصلاة والسلام - إسلامهم ، وشرط البعض أن يخرجوا دون رجوع ، وقَبِلَ منهم - صلوات الله وسلامه عليه - وأوضح أنهم سيلتزمون .

الناس يدخلون في دين الله بنطقهم بالشهادتين باتفاق العلماء ، وانحراف عن الملة يستدعي بينة أوضح من شمس النهار : ﴿ **وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ** (١١٦) ﴾ [النحل:١١٦] ، وإلا فالإمام مالك - رحمة الله عليه - يقول : لو احتمل المرء الكفر من تسع وتسعين وجهًا ، واحتمل الإيمان من وجه ، لحملته على الإيمان تحسينًا للظن بالمسلم ، وكان الإمام أحمد - رحمة الله عليه - يقول لعلماء وقضاء الجهمية : لو قلت قولتكم لكفرت ، ولكني لا أكفركم لأنكم عندي جهالاً ، الوقت غلبت عليه الجهلة ، غلبت عليه الغربة ، فكان لابد من تثبت وعدم تهور ، وإلا فإخراج الناس من الملة يترتب عليه من الأحكام ما الله به عليم ، كان لابد من تثبت ، نحن نكفِّر من يستحق التكفير وليس على الرأس بطح ، نكفِّر من كفَّره الله ورسوله ، نكفِّر فرعون وهامان وأشباه هؤلاء وقارون وأبو جهل وأبو لهب ، ممن قطع الشرع بكفرهم ، لابد من تكفيرهم وإلا فإدخال أمثال هؤلاء في دين الله إجحافٌ بالبلاد وبالعباد .

تضييع مفهوم الولاء والبراء، ما يصح إدخال الكفرة في دائرة أهل الإيمان ، أو وصفهم بالمسلمين،كل ذلك ما يجوز في دين الله - تبارك وتعالى - يقول سبحانه :

﴿ **لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ** ﴾ [المائدة : ٧٢] .

﴿ **لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ** ﴾ [المائدة : ٧٣] .

كان لابد وأن ندور مع إسلامنا حيث دار ، بلا ميوعة ، بلا تغيير ، بلا

تبديل : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ [يونس : ١٥] .

ضوابــط التكفيــر :

وفي ذات الوقت لا يصح تكفير المسلم دون وجه حق، له حرمة، له عصمة ، لابد من توقير حتى وإن أخطأ وجار وتعدى وظلم، يحب حتى وإن جار عليك ، والكافر يُبغض حتى وإن أعطاك ومنحك ، التبست مسائل على البعض ، كان لابد من توضيح ، وضحنا كيف أن شرع الله - جلا وعلا - فيه كفرٌ دون كفر ، وفسق دون فسق ، وظلم دون ظلم ، ونفاق دون نفاق ، وشرك دون شرك ، وعلى ذلك اتفق العلماء .

مسائل التبست على الغلاة ، وكأنهم لم يقرأوا حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن أكثر أهل النار من النساء ، فسألت رسول الله ﷺ : **بمَ** ؟ ، **قال** : « **إنهن يكفرن** » ، قيل : أيكفرن بالله ؟، **قال** : « **يكفرن العشير ويكفرن الإحسان ؛ إذا أحسنت إلى إحداهن الدهر ، ثم رأت منك شيئًا ، قالت : ما رأت منك خيراً قط** » (١) .

فبين صلوات الله وسلامه عليه ، أن هذا الكفر المذكور في النص دون الكفر المُخرج من الملة ، نظرات شرعية تحتاج فقهًا في دين الله ، لا تحتمل السطحية ، ولذلك بوَّب الإمام البخاري باب : كفران العشير ، وكفر دون كفر ، كنا بحاجة لأن نوضح التفريق بين النوع وبين المعين ، وقد يكون القول كفر ، ويطلق القول بتكفير قائله ، فيقال : من قال كذا فهو كافر ، أما الشخص المعين فلا يُكفَّر إلا

(١) البخاري ومسلم وأصحاب السُنن .

بعد قيام الحجة الرسالية ، التي يكفر مخالفها ، وهذه الحجة التي يقيمها عالم أو ذي سلطانٌ مطاع ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حيٍّ عن بينة ، حجة تنتفي بها الشبهات ، وتبرأ بها المعاذير ، معاذير التبست حتى على البعض منا ، ولذلك كان الغلو هنا وهناك ، وإلا فهناك فرق بين أن تقول من فعل هذا فهو كافر ،ولو جئنا بشخص فعل هذا الفعل لا يسعنا تكفيره ، قد يكون قد نشأ في بادية بعيدة ، عرضت له شبهات يعذره الله بها،كان عنده تأويل يمنع تكفيره، ولذلك في حديث الرجل الذي كان أكثر ما يؤتى به لرسول الله ﷺ قام أحد الصحابة يقول: لعنه الله ما أكثر ما يُؤْتَى به لرسول الله ﷺ ، قال : « **لا تلعنه ، فإنه يحب الله ورسوله** » ، أو قال: «**ما أعلمه إلا أنه يحب الله ورسوله**» [1] ، رغم أنه لعن الخمر عشراً ، ولكن لما جيء بهذا الشخص الذي شرب الخمر ، لم يقل له : أنت ملعون ، بل قال : « **إنه يحب الله ورسوله** » ، أو قال : « **ما أعلمه إلا يحب الله ورسوله** » ، وقال : « **لا تلعنه** » ، كان لابد من تفريق بين النوع وبين المعين وهذا الذي فهمه علماء الأمة ،شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمة الله عليه - يقول : « ولكن لغلبة الجهل وقلة العلم بآثار الإثارة، فإنا لا نكفِّر إلا بعد العلم والبيان » ، لابد من إقامة الحجة الرسالية : ﴿ **رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ** ﴾ [النساء : ١٦٥] .

كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمة الله عليه - يقول :

أنا لو رأيت الرجل يسجد عند قبر « عبد القادر الجيلاني » أو قبر « السيد البدوي » لم أكفِّره حتى تُقام عليه الحجة الرسالية ، ولكن البعض وكأنه سلك مسالك السطحية ، كلمة من هنا وكلمة من هناك لم يحسن القراءة ولا التدبر

(١) انفرد به البخاري .

ولا الإطلاع ولا حتى السماع ، وكانت نعرات الغلو وكان لابد من جماحها ، كان للابد من ردها - ولله الحمد والمنّة - انحسرت موجات من هنا ومن هناك - بفضل الله تعالى - كنا بحاجة لتوضيح ، متى يجتمع في المسلم إيمان وكفر، أو إيمان ونفاق ، أو إيمان وشرك ﴿ **هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ** ﴾ .
[آل عمران : ١٦٧] .

وإلا فالإنسان قد يكذب في حديثه ، كذبة قد تعلق الأمور على شماعة المشيئة ، تقول له : تفعل ، ويقول : إن شاء الله وفي نيته أن لا يؤدي ، خصلة من خصال النفاق ، والنَّبيّ ﷺ قال : « **آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان** »(١) .

نفرق بين نفاق ونفاق ، إنسان يكذب في حديثه لن نخرجه من الملة، نقول: هو على شُعبة من شُعب النفاق ، يخشى عليه أن تستحكم على قلبه فيئول أمره إلى النفاق الأكبر إلى النفاق الإعتقادي كنفاق « عبد الله بن أُبي بن سلول » بحيث يُظهر الإيمان ويُبطن الكفر .

قضايا إيمانية كان لابد من ردها للكتاب وللسُّنَّة ما ترد لكثرة ولا لقلة ، لابد من ردها لعلماء الأمة المعتبرين ، حتى يصطلح كل فريق على حقه ، وإلا فقد يجتمع في الإنسان إيمان وكفر ، إنسان يرائي لن نخرجه من الملة ، في حديث أبي ذر رضي الله عنه قال النَّبيّ ﷺ : « **من قال : لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة** ، قلت : وإن زنا وإن سرق ، **قال : وإن زنا وإن سرق** ، قلت : وإن زنا وإن سرق ، **قال : وإن زنا وإن سرق** » ، وفي الرابعة قال : « **على رغم أنف أبي ذر** »(٢) .

(١) البخاري ومسلم وأصحاب السُنن .
(٢) البخاري ومسلم وأصحاب السُنن .

فلا يُكفَّر المسلم بكبيرة ، نقول : عاصي ، وبحسب استحكام الأمر ، سنكون أمره إلى جهة من الجهتين ، يتخوف على الإنسان من الذنوب والمعاصي ، لم نسلك مسالك الإفراط والتفريط ، وإلا فكان هنا خوارج وغلاة ، وهناك أيضًا مرجئة ، وهؤلاء وأولئك كلاهما على باطل على ضلال ، الخوارج يكفِّرون بالكبيرة ، وفي المقابل المرجئة يقولون : لا يضر مع الإيمان ذنب ، وأن الإيمان هو العلم فقط ، رددنا على هؤلاء وعلى أولئك .

العدل أساس الملك وإن قامت السماوات والأرض ، وسطية لابد منها وخير الأمور أوسطها ، كنا بحاجة لأن نوضح أن الإنسان قد نحكم له بالإسلام ، ويعلم الله تبارك وتعالى كفره ، وليس لنا إلا ذلك ، نحن عباد ولا يسعنا إلا أن ندور مع إسلامنا حيث دار ، ما ندعي ربوبية ولا ألوهية ، لم نشق عن قلوب الخلق ، لم ننقب عن صدورهم ، نأخذ بظاهرهم ونكل سرائرهم إلى الله ، هو يتول السرائر، نحسن الظن بالخلق ونسيء الظن بأنفسنا ؛ هذه هي قاعدة أهل السُّنَّة والجماعة .

لما بعث عليّ بن أبي طالب لرسول الله ﷺ بذهيبة من اليمن ، قسَّمها بين أربعة ، فقام ذي الخويصرة يقول لرسول الله ﷺ : اتق الله ، اعدل ، فقال النَّبي ﷺ : « **ومن يتق الله إن لم أتقه ، ومن يعدل إن لم أعدل ، يأمنني من في السماء ولا تأمنوني** » ، فقام رجلٌ من الصحابة يقول لرسول الله ﷺ : دعني أضرب عنق هذا الرجل ، قال له ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ : « **لربما يكون يصلي**» ، قال الرجل: رُبَّ مُصلي يقول بلسانه ما ليس في قلبه ، رد عليه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وقال : « **إني لم أُؤْمر أن أشق عن الصدور، ولا أن أنقب عن القلوب** » ، وقال : « **سيخرج من ظهري هذا** ـ أي من نسل ذي

الخويصرة - **قوم حداثي الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من قول خير البرية ، يتركون أهل الأوثان ويقتلون أهل الإسلام** »(١) .

وهذا ما أخبر عنه الصادق المصدوق - صلوات الله وسلامه عليه - ، مما أُثر عن المسيح - صلوات الله وسلامه عليه - أنه قال : « **لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله ، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب ،وإن القلب القاسي بعيدٌ عن الله ، ولا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أرباب ، ولكن انظروا فيها كأنكم عبيد ، فإن الناس رجلان ؛ مبتلى ومعاف ، فارحموا أهل البلاء ، واحمدوا الله على العافية** »(٢) .

لا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أرباب، ولكن انظروا فيها كأنكم عبيد ، كان النَّبيّ ﷺ لم ينهى عن ذبائح المنافقين ، لم ينهى صحابته عن التزوج من المسلمين ، هكذا كان الشأن والحال رغم أن المنافق في الدرك الأسفل من النار ، قد نحكم للإنسان بالإسلام ، ويعلم الله كفره ، وليس لنا إلا ذلك ، نحن بشر نقبل من الناس علانيتهم ، من خدعنا بالله انخدعنا به ، لا يمكن أن نضرب أخماسًا في أسداس ، ولا أن نرجم بالغيب ، ولا أن نشق عن صدور الخلق ، نحمل الناس على أحسن محاملهم ، وهذا دين ندان به لله ، الأصل في المسلمين البراءة لا الاتهام ، والناس ورثوا الإسلام وجهلوا معانيه ، يسعك معهم العمل بالرفق « **إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ، ولا ينزع من شيء إلا شانه** »(٣) ، يسعك تقريبهم من رضوان ربهم ، دلالتهم عن طريق الله ،وهذه الصحوة الإيمانية التي نشاهدها والتي تبعث على البشارة ، تدلج الصدور ، ما

(١) سبق تخريجه .
(٢) موطأ الإمام مالك .
(٣) مسلم وأبو داود وأحمد ، واللفظ لمسلم .

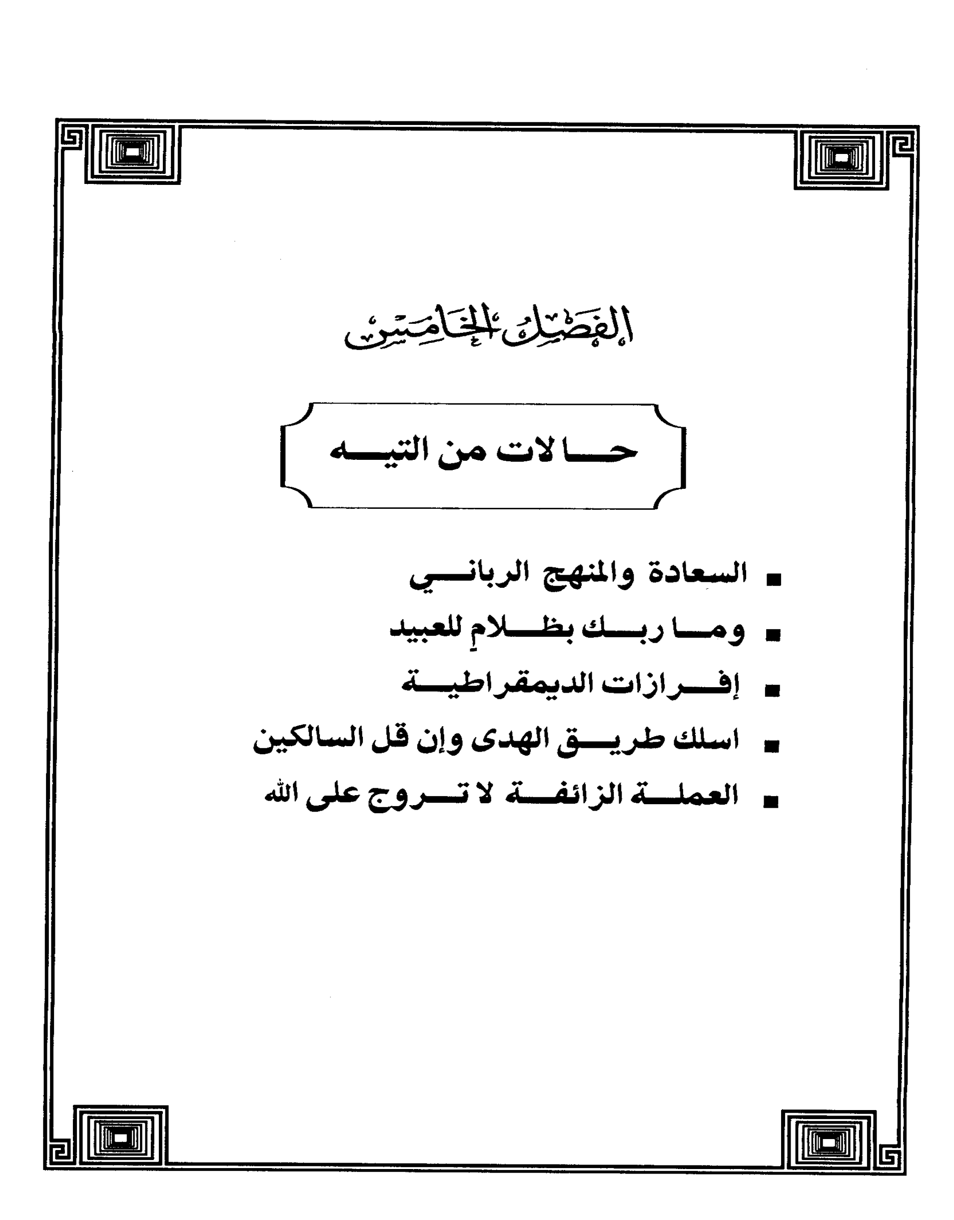
كانت هذه الدعوة بفضل الله إلا بكلمات طيبات من هنا ومن هناك ، بورك فيها ، وإلا فالسيوف قد تجر إلى وراء وراء ، ما يصح لك أن تستخدمها مع مسلم ، ولا حتى أن تشير إليه بالسلاح هذا مما لا يجوز في دين الله على جهة ترويعه ، أو على جهة المزاح معه كنا محتاجين لأن يصطلح كل فريق على حقه ، إن كان تكفيراً وجهاداً بحق فهو مقبول ، إن كان جهاداً وتكفيراً دون وجه حق ، فهو مردود على صاحبه كائنًا من كان .

نحتاج لفرز واعٍ مستندنا فيه هو ما جاء في كتاب الله وفي سُنَّة رسول الله ﷺ ، ما كان عليه النَّبيّ ﷺ وصحابته الكرام ، منهج إيماني معصوم بعصمة الكتاب والسُّنَّة ، لا نضفي العصمة على أشخاصنا ولا على كلماتنا ولا على أفعالنا ، ولكن المنهج الذي نتشرف للانتساب له ، منهج معصوم ، هو الميزان وهو المقياس وهو الضابط ، إن وافقناه فنحن على حق وإن خالفناه ، محتاجين لأن نرد إلى أخية الإيمان حتى يصطلح كل فريق علىٰ حقه، محتاجين لعدل واعتدال، لتوازن واتزان ، ولا سبيل إلا العمل بهذا المنهج الإيماني ، لا نتركه ولا مساومة عليه ، المساومة عليه غير مقبولة ، نفضي الأرواح إلى بارئها ، ولا نترك ما جاء في كتاب ربنا وفي سُنَّة نبينا ﷺ ، لسنا بالخفة ولا بالطيش بحيث نتوارى خجلاً من هذا المنهج الإيماني ، هو المنهج الحق ، المنهج الذي يجب على الأفراد والدول والجماعات هنا وهناك أن يدينوا به ، لهم الخيرات والبركات ، لهم النصر والعز والتمكين إن هم عملوا بمقتضاه ، إن هم تابعوه ، ربنا تبارك وتعالى يعزهم بعد ذلة ، يؤلف بين قلوبهم بعد شتات وفرقة وما الخير إلا من عند الله ، والفضل كله بيديه سبحانه ، وما النصر إلا من عنده ، فليكن قول أحدكم لصاحبه ﴿ **إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** ﴾ [التوبة : ٤٠] ، ولن يكون الله معناه إلا إذا كنا مع الله ، يصطلح كل

فريق على حقه ، نعظم الحرمات ﴿ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا من تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢) ﴾[الحج : ٣٢] ، إن وفقنا وسددنا فالفضل كله لله : ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾[هود : ٨٨] .

وإن لم نوفق فلننظر في أنفسنا نصحح ما بها من عيب ، فإن وعد الله لا يتخلف ، ولكن نحن الذين نتخلف عن موعِدِ الله ووعده .





الفصل الخامس

حـــالات من التيـــه

- السعادة والمنهج الربانـــي
- ومـــا ربـــك بظـــلامٍ للعبيد
- إفـــرازات الديمقراطيـــة
- اسلك طريـــق الهدى وإن قل السالكين
- العملـــة الزائفـــة لا تـــروج على الله

الفصل الخامس

حـــالات من التيـــه

الحياة بغير الله تيه وسراب ﴿ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾ [النور : ٣٩] .

تائه كل من عبد غير الله - تبارك وتعالى - وكل من شرع مع الله ، وكل من انحرف عن منهج الله ، تائهٌ من عبر عن تيه بقوله : جئت من أين ولكني أتيت، ولقد أبصرت قدامي طريقًا فمشيت ؛ لا يدري من ربه ، من الذي خلقه ، ولماذا خلقه ، وإلى أين المصير .

طائفة كبيرة من البشر يعيشون حياة التيه من جراء الإنحراف من منهج الله - تبارك وتعالى - وكأنى بهؤلاء الذين دخلوا في التيه بعضهم انطلق يمينًا وبعضهم انطلق شمالاً ، بعضهم شرَّق وبعضهم غرَّب ، كانوا في حركة دائبه ولكن يدورون حول أنفسهم ، ضلوا الطريق ، ما يعرفون سبيلاً ولا طريقًا للخروج من التيه ، وكأن ببعضهم كان يزعم أن طريق الخلاص هو الذي سلكه ، هو الذي عرفه ، ثم يعودون إلى المربع صفر على اعتبار وعلى قول البعض ، ما يستطيعون الخروج ، هذا هو شأنهم ، وهذا هو حالهم ، كلهم صاحب رأي ، كلهم صاحب عقل ، بل كلهم صاحب منهج ، وهذا هو حالهم في النهاية ؛ يدورون حول أنفسهم ﴿ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ [المائدة : ٢٦] ، وطريق الخلاص كان يكمن في الإيمان والتوكل على الله ، خطوة على طريق الإيمان ؛ لو دخلوا عليهم الباب لأمكنهم ربنا ولتمكنوا من رقاب العماليق ولكن كان الفسق وكان الخروج

عن منهج الله ، تاهوا عن اللحظة الأولى عن طريق البداية ، كانوا يدورون حول أنفسهم ، يتيهون في الأرض،وقد يكون هذا هو شأننا وشأن غيرنا من البشر ، كلنا صاحب رأي ،كلنا صاحب عقل ،كلنا صاحب منهج ،كلنا نزعم الخلاص ، وكلنا نزعم الإصلاح ، وكلنا ندور حول أنفسنا ونعود إلى المربع هو هو ، والسبب أننا لم نسلم وجوهنا لله ، لم نتوكل على الله ، بل لربما لو خرج فينا بعض الناصحين كهذين ﴿ **قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٣)** ﴾

[المائدة : ٢٣] .

وكأنى بأشباه وأمثال هؤلاء لو قاموا فينا لاستحقوا الرجم بالحجارة كما استحق هذين أيضًا ، تكالب عليهم القوم ، ما الذي فعلوه ؟! ، كانوا يدلونهم على طريق الخلاص ، على الطريق الموصل إلى الله ،وإلى جنات النعيم ما ستحققوا الطرد والإبعاد ، وكأنى بالإنسان عندما ينحرف عن منهج الله يظلم قلبه ، وإذا ما أظلم القلب ، أظلم العقل ، وإذا ما أظلم العقل ضل الإنسان الطريق ، ولك أن تتخيل حالة المخمور أو من يتعاطى حبوب الهلوسة أو العقاقير المخدرة ، لك أن تتخيل حالة التيه التي يدخل فيها ، ولا يختلف اثنان على أن المخمور لا عاقل ولا إدراك ، يعيش حياة التيه ، وأنا أقسم لك بالله ؛ كل من كفر بخالق الأرض والسماوات ، كل من أعرض عن منهج الله يعيش حياة التيه ، بل التيه الذي يعيش فيه أشد وأنكى وأمر من حياة المخمور ، من حياة من يتعاطى الهلوسة ولكن لغربة الحال وانحراف الأوضاع صارت حساباتنا وحسابات البشر حسابات مادية، نفسر الماء بعد العسر بالماء،لا نكاد نستحضر صورة إلا صورة هذا المخمور ، صورة هذا الذي يتعاطى حبوب الهلوسة،وإلا فالكافر حالته أنكى وأمر، ولا أدل

على ذلك من قول ربك - تبارك وتعالى - العليم الحكيم ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ (٤٠) ﴾ [النور : ٤٠] .

وقال - جل في علاه - : ﴿ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر : ١٤] .

وقال : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج : ٣١] .

السعادة والمنهج الرباني :

حياة الترف ، حياة القلق ، حياة الفوضى ، كل ذلك ينجم من جراء الكفر بخالق الأرض والسماوات والإعراض عن منهج الله ، ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٢) ﴾ [الملك : ٢٢] ، عقلاء وعدد كبير وضخم كلهم يدور حول نفسه، كلهم وطيلة أربعين سنة يتيهون في الأرض ، وأنت قد تتوه في الأرض أكثر من ذلك وأعظم إذا ما انحرفت عن منهج الله ، والحال هو هو والشرع لا يفرق بين المتساويين ، ولا يساوي بين المتفارقين ، تائهٌ كل من عبد غير الله - تبارك وتعالى - كل من جحد ربه ، كل من ألحد في دين الله ، كل شيوعي ملحد زنديق،فهو تائهٌ في الأرض حتى وإن كان عددهم بالملايين أو قل مليارات، تائهٌ في الأرض من قال : عُزيرٌ ابن الله ، ومن قال : المسيح ابن الله ، كلهم تائهٌ وضال مضل ، هذا الذي نصب النفس نداً وإله مع الله، يشرع معه - جل في علاه - هو تائه في الأرض ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ ﴾ .
[الشورى : ٢١] .

تائهٌ هذا الذي صرف العبادة « للسيد البدوي » أو « لأبي العباس المرسي » أو يُشركون ما لا يخلق شيئًا وهم يُخلقون ، تائهٌ هذا الشيعي ، بل أنت عندما تطمئن لأمثالهم سيفتحون أبواب البلاد والعباد لتتار العصر ، كما فتحوا أبواب بغداد « لهولاكو » وصنيعهم اليوم هو صنيعهم بالأمس ، تائهٌ من لم يستقرأ السُنن الشرعية والسُنن الكونية ، فكان جراء ذلك أن نُلدغ من نفس الجحر ، لا أقول مرتين ؛ نلدغ من نفس الجحر آلاف المرات ، ولا يكاد يرتدع طالما لم يرفع رأسه بدين الله ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً (٧٢) ﴾ [الإسراء : ٧٢] .

والإنسان لا يستبصر إلا إن عمل بشرع ربه ، يكون على نور ، بل يكون نوره نافذاً في البشر في البلاد وفي العباد ، وكلٌّ على قدر حاله ، على قدر إسلامه وتدينه تكون البصيرة النفاذة : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨) ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

تائهٌ هذا الذي عصى ربه ،وعلى قدر عصيانه تكون حياة التيه التي يدخلها، يظل يدور حول نفسه ، لا يدرك مصلحته ، بل لا أغالي لو قلت : شعوب بأكملها قد تكون تائهة لا تدرك مصلحتها وهذا واقع ، ولا أدل على ذلك من قوم نوح وعاد وثمود ، وقرون بين ذلك كثيرة ، هل كان تعدادهم بالملايين ؟!!، لا تستبعد ذلك لحالتنا ، وعلى الرغم من ذلك انتقلوا إلى ربك غير مأسوف عليهم ، بل لما خرج نبي الله لوط ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ينكر على القوم صنيعهم ، قالوا : ﴿ أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [النمل : ٥٦] ، كم كان عدد نبي الله لوط عليه السلام ومن آمن معه ؟! ، وما آمن مع نبي الله نوح عليه السلام إلا قليل بعد دعوة استمرت ألف سنة إلا خمسين عامًا ،وحالة البشر هي حياة التيه ، هذا هو شأن الكثرة الكاثرة .

البعض يتعجب ، هل الشعب بأسرة لا يدرك مصلحته ؟ ، نقول : أي والله، طالما أعرض عن ذكْر ربه ، طالما انحرف عن منهج الله ، طالما لم يطبق شرع الله ، طالما لم يخلص الأمر كله لله، تكون هذه هي حياته، وإلا فالنَّبيّ ﷺ أخبر عن بعث النار، عندما يقول رب العزة - جل وعلا - : «**يا آدم ابعث بعث النار،فيقول : أي ربي ، وما بعث النار، فيقول : من كل ألف تسعمائة وتسع وتسعين إلى النار وواحد في الجنة**» (١) ، لما سمع الصحابة ذلك لم يبدوا بضاحكة ، لك أن تتخيل هذا العدد الكثير هو من بعث النار ﴿ **يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ** (٣٠) ﴾ [ق : ٣٠] .

فالمسألة لا تؤخذ بكثرة ولا تؤخذ بقلة ، بل قد تكون الشعوب تائهة والضابط عندنا والميزان والمقياس هو ميزان الشرع والدين ؛ من وافقه كان على حقٍ على نورٍ وعلى بصيرة ، ومن أعرض عنه كان ممن يحيا حياة التيه ، ثم هذا لا يقتصر على اللحظات الفانيات فحسب ، لا هو إن كان أعمى في هذه الدار عن ذكر ربه وعن معاني الإيمان ، سيكون عماه في الآخرة على قدر ما كان عليه الأمر في الدنيا : ﴿ **وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ** (١٢٤) **قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا** (١٢٥) **قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ** (١٢٦) ﴾ [طه : ١٢٤-١٢٥] .

وما ربك بظلام للعبيد :

وربك هو الحكم العدل ـ سبحانه ـ لا يظلم الناس شيئًا ولكن الناس أنفسهم

---

(١) الترمذي وأحمد ، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح .

يظلمون ، والجزاء من جنس العمل « **اعمل ما شئت كما تدين تُدان** » [(١)] ، كانت الحسبة بسيطة ؛ خطوة على طريق الإيمان ستهدي بها لأرشد السُبل ، وهذه الخطوة ستجرك إلى خطوات وإلا فجزاء الطاعة طاعة مثلها ؛ كما يقول شداد بن أوس : إذا رأيت الرجل يعمل بطاعة الله فاعلم أن لها عنده أخوات ، وإذا رأيت الرجل يعمل بمعصية الله ، فاعلم أن لها عنده أخوات ، فإن الطاعة تدل على أختها وأن المعصية تدل على أختها .

طاعة الوقت ، بلا فزلكة وبلا فلسفة ، وبلا حتى تعرف على المنهج المتكامل الذي يحلو للبعض أن يصوغه ، هي خطوة على طريق الإيمان سيستنير بها القلب سيتضح بها الطريق ، سنخرج بها من التيه ، وكان هذا هو الشأن والحال مع الأبناء ؛ ما كادوا يدخلون على العماليق الباب إلا وانتصروا عليهم ، ما هو المنهج الذي علموه واستبصروه من بدايته لما لنهايته ؟ .

كان الواجب علينا أن نتعرف على طاعة الوقت ، هذا يسعك ، هذا يسع كل مخلوق ، سواء أكان حاكمًا أو محكومًا ، عالمًا أو جاهلاً ، رجلاً أو امرأة ، كبيرًا أو صغيرًا ، والمسألة سهلة ويسيرة ولكن عقدنا الأمور وشددناها فشدد الله علينا ، وكانت حياة التيه ، والأمر أيسر وأبسط وأخف من ذلك بكثير ، ما هي الطاعة المطلوبة في لحظتنا هذه ؟، كن على بصيرة ، كن على علم نافع وتابع ذلك بعمل صالح سترشد لأهدى السُبل بإذن الله تعالى ، هذا دين متين كان لابد من التعرف على طبيعة الطريق ، وإلا فتائهٌ قد يقود تائهًا ، والواحد إذا ما عاش حياة التيه قد يتسبب في ضلال غيره ؛ بمعنى أن التيه ما يقتصر على شخصه ؛ يتعداه إلى غيره من البشر ، ولذلك كان لابد أن نستبصر بمواضع الأقدام وإلا

---

(١) البخاري باب وسميت أم الكتاب تفسير الفاتحة .

فالسلامة لا يعدلها شيء ، والأمر إما جنَّة وإما نار ، كان الواجب علينا أن نضع أرجلنا على طريق البداية ، على طريق الخلاص الحقيقي ، على المنهج ا لموصل إلى الله وإلى جنات النعيم ، وإلا فالناظر في واقع الحال سيجد صراعًا بين مناهج كلهم يزعم الصلاح والإصلاح ، كلهم يزعم أن بيده طريق الخلاص ، وانظر للفوضة التي يطلقون عليها وصف الفوضى الخلاَّقة ، وما هي إلا فوضى مدمرة ، كيف حدثت ولماذا حدثت ؟ .

صورة واقعية تعبر لك عن حالة من حالات التيه التي تعيشها الأمة ، دخلتها بقدميها لما أعرضت عن ذكر ربها - تبارك وتعالى - كان التشرزم ، كان التفرق ، كانت حياة الفوضى التي لا مثيل لها ، والبعض له تعبيرات تحتاج إلى وقفات ، ويقول: اسمح لي وإلا فلو منعتني منعت غيري ، أو أنا أدفع روحي ثمنًا أن تقول رأيك أنت، انظر البعض عندما وجد الفوضى، قال : العلاج في مزيد من الحرية ، والعاشر أو رقم المائة يقول : الحرية هي البداية ، وكل هؤلاء ضال مُضل ، سواء أكان على علمٍ أو على جهل ، وحتى من جهل ما يصح له أن يتقدم ، ما يصح له أن يتكلم بداية في دين الله - تبارك وتعالى - ، ما يليق به أن يترأس بالجهالة ، وإلا فهؤلاء قادوا أنفسهم والبشر من حولهم لحياة أشبه بحياة التيه ، انظروا لبعض إفرازات الحرية العفنة التي تعيشها الأمة من جراء البعد عن منهج الله ؛ هذا يسب النَّبيّ ﷺ ، ثم من سمع ذلك يقول : لا مقدس عند الغرب ، فيطيش عقل الثاني ، كيف ونحن ننادي بالحرية ونحن ننادي « بالديمقراطية » وإلا فكيف تصل الحريات إلى سب النَّبيّ ﷺ ،وكأنه أسقط في يده؛ اضطراب وتناقض مريب،وهذا من حالات الفوضى العقلية والتي أدت إلى فوضى سلوكية، وكل إناءٍ بما فيه ينضح ، والسلوك مرآة الفكر .

قل لي : من صاحبك ، أقول لك : من أنت ، قل لي : ما هو معتقدك ، أقول لك : حجم الفوضى ، حجم الدمار والخراب والاضطراب ، حجم التيه الذي ستعيش فيه بلا رجم بالغيب ، إذ كل مقدمة لها نتيجة ، كل عقيدة لها تأثير ؛ ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (١٧) ﴾ [سبأ : ١٥-١٧] .

الرب حكيم - جل في علاه - قادر ، تُعرض عن ذكر ربك وتطلب بصيرة ونوراً !! ، تطلب خروجًا من التيه !! ، التيه لا يخرج منه إلا من اتقى ربه ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق : ٢-٣] .

إذا أعرضت عن ذكر الله كنت كمن يدور حول نفسه ، تقول : أربعين سنة، أربعمائة سنة ، احكي كما شئت ، سيكون هذا هو حالك وشأنك سواء كنت فردًا أو دولة أو جماعة .

إفــــرازات الديمقراطيـــة :

من إفرازات الحرية صلب المسيح - صلوات الله وسلامه عليه - ونشر هذه المعتقدات في جموع المسلمين،هذا كله من جراء هذه الحريات، بهائية تظهر وتطل برأسها ويعتبرون ذلك أيضًا من جملة الحريات ، ناهيك عن الصوفية ، وعن الشيعة ، وعن غير ذلك ، ناهيك عمن صار يستعدي الصليبي على أبناء وطنه ، على أبناء المسلمين بزعم نصر الحريات، وكأنه يستعدي الذئب لحماية الغنم ، هذا هو شأن الحريات، هذه بعض الإفرازات العفنة ، وإلا فلو ظل الإنسان

يحكي ويختار من هنا ومن هناك لطال بنا الحديث ولما فرغنا ، لن تجد إلا عفنًا ، لن تجد إلا نكدًا ، وكل ذلك من جراء البعد عن منهج الله ، حياة هي أشبه بحياة التيه وإلا فهذا الذي يدفع حياته ثمنًا لأن تقول رأيك أنت وكأنى به لو بعث فيه نبي لما نصره ، لما نصر دين الله ـ جل وعلا ـ سيكون شأنه كشأن قوم لوط الذين قالوا : ﴿ أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [النمل : ٥٦] ، عبارات عنتريه تسمعها من هنا وتسمعهما من هناك،وقد ينبهر بها من لا بصيرة عنده ، كان الواجب علينا أن نكون على بصيرة من أمرنا وأمر الناس وإلا فأنا لا أقبل أن أخدش في سبيل رأي منحل ، في سبل رأي كافراً ومارق ، أن لا يمكن أن أناصر أمثال هؤلاء ، ولا إن قدرت أن أسمح لهم ابتداء بأن ينشروا الكفر والباطل والضلال ، وفي الحديث : « **من بدل دينه فاقتلوه** » [١] .

حريات عفنة ، حريات تعبير ، حرية رأي ، بل حرية شذوذ جنسي ، كل ذلك من إفرازات الديمقراطية، من إفرازات الحرية ، هل يتصور مع ذلك أن تخرج من حياة التيه؟ ، هذا لا يتصوره إلا من غشيت عليه غشاوة العمى، من لم يدرك السُنن الشرعية ، ولا السُنن الكونية ، وإلا فالإنسان لا يخرج من التيه إلا بتقوى الله ـ تبارك وتعالى ـ ، انظروا لقول القائل: الحرية هي بداية الطريق،وكأنه لم يقرأ شرع ربه ، وكأنه لم يسلم وجه لله ، وإلا فبداية الطريق تكمن في تعبيد الدنيا بدين ربها ، ولذلك ما من نبي إلا وقال لقومه : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف : ٦٥] . ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل : ٣٦] .

هذا هو الشأن والحال ، دعوة الأنبياء والمرسلين ، المنهج الذي نخرج به من

---

(١) البخاري وأصحاب السُنن من حديث عكرمة .

التيه ، ولكن عميت البصائر قبل الأبصار ، ولذلك كان النطق بتعبيرات وكأنها لها واقع أو رصيد ، والبعض يقول : لابد من السماح لي وإلا ، فإن منعتني منعت غيري ، اسمح لي ولغيري ، وكأنها دماثة الخُلُق أو السماحة ، يسمح للحق ، يسمح للخير أما الأصوات المنكرة فلابد من منعها ، لابد من طمسها ؛ « **من رأي منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه** »[١] ، أما أن يسمح لها لتلوث البلاد والعباد ، تشيع الرذيلة في الخلق ، سيكون مآلنا تحت التراب في العاجل ﴿ **وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ** ﴾ .

[طه : ١٢٧] .

سيكون مصيرنا كمصير قوم لوط ، أخذهم سبحانه أخذ عزيز مقتدر ، أرسل عليهم حجارة من سجين منضود ، قال تعالى ﴿ **مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣)** ﴾ [هود : ٨٣] .

اسلك طريق الهدى وإن قل السالكين :

فالطريق الذي نسلكه هو طريق الإيمان ، طريق ومنهج الأنبياء والمرسلين ، هذا هو السبيل للخروج من التيه الذي نعيش فيه ، لهذه المناهج المضطربة التي آلت بالبلاد والعباد لفوضى يسمونها أحياناً على سبيل الفلسفة « فوضى خلاقه » ، وما هي إلا فوضى مدمرة ، ولا يمكن أن يتحقق استقرار البلاد والعباد ، إلا بالعودة الصادقة لمنهج الله ، إلا بتطبيق شرع الله ؛ إلا بالعمل بكتاب الله وبسُّنَّة رسول الله ﷺ ، حينئذٍ يصطلح الحاكم مع المحكوم ، يصطلح كل فريق على حقه ، وإلا فالفتنة تضطرم بالبعد عن منهج الله ﴿ **وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً**

---

(١) مسلم وأصحاب السُنن .

أتصبرون وكان ربك بصيراً ﴾ [الفرقان : ٢٠] .

المخرج من الفتنه يكمن في العمل بطاعة الله ، وإسلام الوجه لله ـ جل وعلا ـ ، وإلا فالنماذج أكثر من أن تحصر ، ويكفي أن ترسل بصرك على هذه الحريات العفنة ، هذه الحريات التي آلت بالبلاد والعباد إلى نوع من التحلل ، إلى نشر الرذيلة ، إلى كبت لأصوات الحق ، كل ذلك من شأنه أن يدمر الخلق في العاجل والآجل ، وهي السُنن : ﴿ **فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً** ﴾ [فاطر :٤٣] .

وكأني بالجميع صاحب رأي ، صاحب منهج يزعم أن الخلاص والصلاح والإصلاح في المنهج الذي يدين به والذي ينشره في البلاد والعباد ، ولا يصيب من هؤلاء ، ولا يحسن صنعًا من هؤلاء ؛ إلا من سلك طريق الإيمان ، إلا من أسلم وجهه لله ـ تبارك وتعالى ـ وما الحق إلا واحد ، اعرف الحق تعرف أهله ، واعرف الباطل تعرف من أتاه ، واسلك طريق الهدى ولا يضرك قلة السالكين ، وإياك وطرق الضلالة ولا تغتر بكثرة الهالكين .

تائهٌ من دخل الحروب يومًا بقراءة الكف أو الفنجان أو الودع ، تائه من تزوج بالرجوع للعرافين والكُهان ، كل هؤلاء يتيهون في الأرض ، تائه هذا المشرك الذي كان إذا ما جنه الليل عاش حياة الأساطير ، حياة الخزعبلات والأوهام ، تائهٌ هذا الذي صرف العبادة لغير الله ، كان فرعون تائهٌ ، وهو نموذج لحياة التيه ، عندما أراد الخلاص من نبي الله موسى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ، ولا ينفع حذر من قدر ، قام هو بتربيته أولاً ؛ ونام على سريره ، وأكل من طعامه ، وخلاص الأُمَّة من هذا الفرعون، يكون على يدي نبي الله موسى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ تائهٌ عندما لم يعرف ربه فقال : ﴿ **قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ (٤٩)** ﴾ [طه : ٤٩] ،

عندما ادعى الربوبية والألوهية مع الله وهو المخلوق الأخرق ، وهو المخلوق الضائع الذي لا يدرك حتى مصلحته ، لا يدرك شأنًا ولا حالاً ، وإلا وهو الربوبية والألوهية ، يأتي بسبعين ألف ساحر لمواجهة نبي الله موسى الأعزل إلا من سلاح الإيمان، كان تائهًا في كل حركة ، كل سكنة ، وهذا كله من جراء الكفر ؛ يظلم القلب ، يظلم الحال ، يضل الإنسان طريقه ، وإذا ما كان الناس يقولون فلان تاه بمعنى أنه ضل الطريق ، فعندما نضل طريق الإيمان تكون حياة التيه أعظم وأشد ، بل نتيه في الأرض تيهًا حقيقًا تجسيديًا كحالة التيه التي دخلها بنو إسرائيل ﴿ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة : ٢٦] .

يدورون حول أنفسهم ما يستطيعون الخروج ، وكان السبب في ذلك هو الفسق، لو تركوا فسقهم، لو خطوا خطوة في طريق الإيمان لكان الخلاص ، لكانت النجاة ،ولكان النصر على هؤلاء الجبابرة العماليق ، كان النمروذ هو الآخر تائهًا ، وقس على ذلك كل من كفر بالله ، أقسم لك بالله هو تائه في الأرض ، وما لا يدرك مصلحة نفسه لا في العاجل ولا في الآجل ، بل ستجد اضطراب وستجد الفتن والقلق والفوضى ، على قدر انحرافه عن منهج الله - تبارك وتعالى - كل هؤلاء يتيهون في الأرض، هل تائهٌ هذا الذي لما سمع سب نبيه ﷺ وكأنه أصابه الخزي؛ ماذا يقول؟ ،كان في الأمس أو في لحظته ينادي بالحريات وبتطبيق « الديمقراطيات »، فسمع الغرب يرد عليه ويقول : « لا مقدس عند الغرب » فاستهجن ذلك .

وهل المقدسات تصل إليها هذه الحريات ؟ ، هكذا يكون الاضطراب ، هكذا يكون التناقض بعكس ما لو عملت أنت بطاعة الله ، هي الطاعات سالمة عن كل معارضة، ما يستطيع إنسان أن يزوغ أو يروغ .

وانظر نفس الموقف العفن، عملوا هو هو مع النَّبيّ ﷺ لما سب وشتم ، وهو هو أيضًا يتكلمون به ، الواحد منهم يبيح التمثيل بزعم أنه التمثيل ، أو الفن الهادف ، ثم تجده إذا ما سأل عن الصور العارية ، عن الحركات والإيمائات التي تفعلها بعض الساقطات ، يقول : أرفض ذلك ولكن اسمح للفن الراقي ، الفن الرفيع ، الأفلام القديمة والأغاني القديمة ، وكأنهم يكيلون بألف مكيال ، كيف سمح لهذا ولماذا يمنع الثاني ؟! ، أنت لا تدري ، نفس القضية مع التليفزيون وغير التليفزيون ؛ تسمع من يقول : أنا أمنع القنوات الإباحية وهو هو يسمح بالأفلام وبالتمثيليات والمسرحيات ، يسمح للأغنيات، ويسمح أيضًا للرقصات ، كل ذلك إذا وصل الصخوب ووصل السفول إلى مرحلة لا تكاد تتخيل بالنسبة له ، يقول : أمنع ذلك .

كان الواجب علينا أن نمنع كل ما منعته الشريعة ، كان الواجب علينا أن ندور مع إسلامنا حيث دار ؛ ما سمح به الكتاب والسُّنَّة نسمح به لإقامة الدين ولسياسة الدنيا به ﴿ **وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ** ﴾ [المائدة : ٤٩] .

﴿ **إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [يوسف : ٤٠] .

وإلا فما رأيكم إذا خرجت ممثلة شابة بزينتها على الملأ ، ينظرون إليها وتنظر إليهم ، وتؤدي دورًا كأنها الزوجة أو الأم حتى وإن كانت محجبة ، هل مثل ذلك تسمح به الشريعة ؟ ، وهل فقط منعت الشريعة أن تكون متبرجة ؟ ، ترتدي ثوبًا تحت الركبة أو فوقها ، هل هذا هو الممنوع فقط ؟ ، البعض يهرف بما لا يعرف ؛ البعض وكأنه يخرج من جيبه رُخصًا خاصة ، كل ذلك لا يجوز ، حالة من الميوعة ، حالة من حالات التلف .

الواجب علينا أن نسلم وجوهنا لله ، وإلا فامتناع بنو إسرائيل - وهم شعب الله المختار - امتناعهم عن الامتثال لنبي الله موسى وعن دخول الأرض المقدسة ، قالوا : ﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) ﴾ [المائدة : ٢٤] .

كان منهم سوء الأدب ، ولما كان سوء الأدب كان من جراء ذلك الخذلان ؛ ﴿ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ ﴾ فكيف إذا صرنا حربًا على دين الله ، هل سنأكل من فوق رؤوسنا ومن تحت أرجلنا ؟!! ، هل ننتظر خيرًا وصلاح للبلاد وللعباد ، الشرع لا يعرف المحاباة ولا يعرف المجاملات .

العملة الزائفة لا تروج على الله :

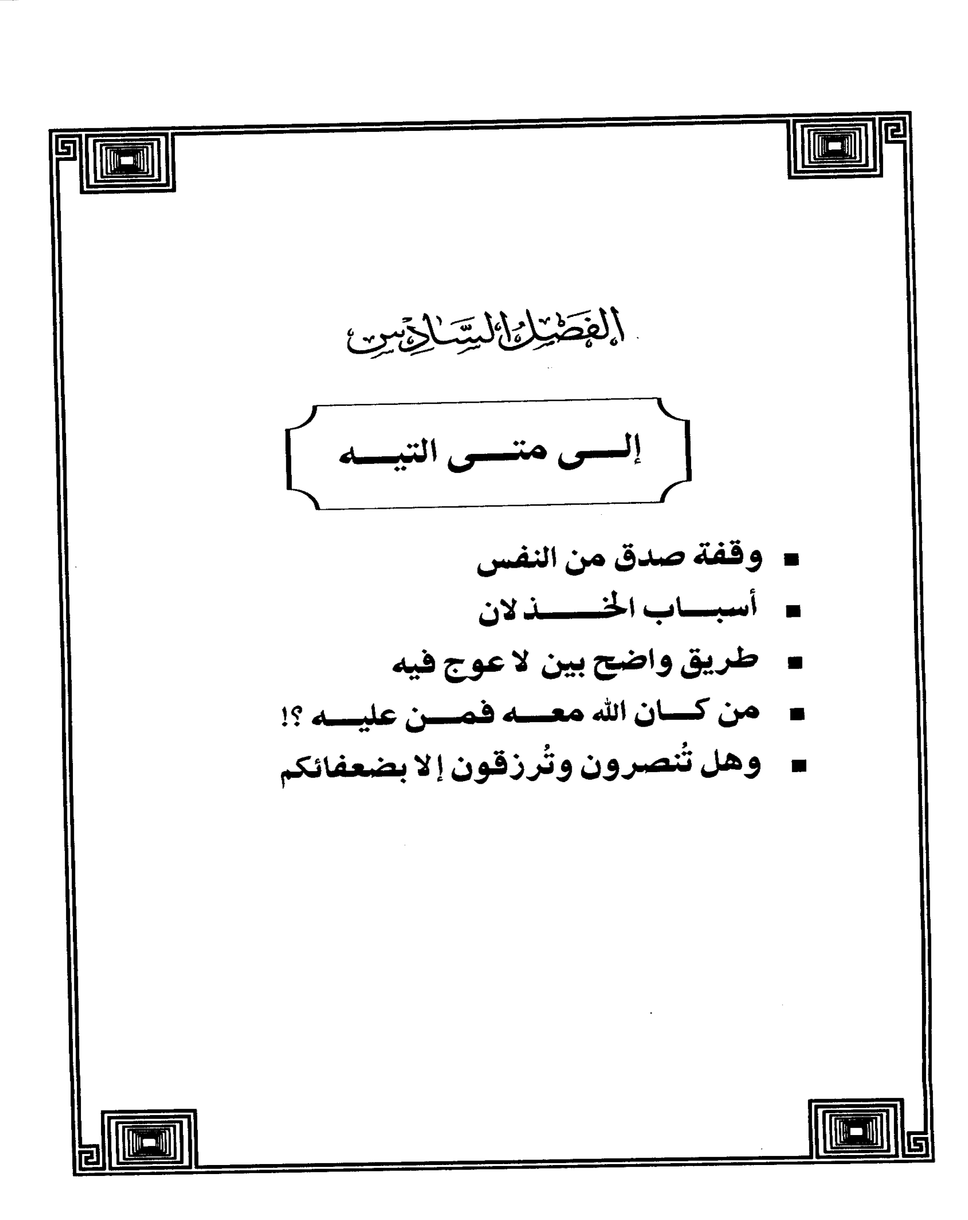
نحن أمة بحاجة لأن تعود إلى دينها عودًا حميدًا ، وفي اليوم الذي نهجر فيه شرع ربنا ، لا أقول : نعود إلى حالة الجاهلية الأولى ، سنود إلى أشد من حالة الجاهلية الأولى ، إذا ما صرنا حربًا على إسلامنا ، حربًا على ديننا ، ولا يشفع لنا انتسابنا إلى ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ ، لا يشفع لنا انتسابنا للإسلام بالاسم فحسب ، وإلا فالرب قدير - سبحانه - ؛ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، العملة الزائفة لا تروج على الله ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .
[البقرة : ١١١] .

نحن بحاجة لأن نقف وقفة صدق ، نضرع فيها لخالق الأرض والسماوات، عساه يجبر كسرنا ، ويرحم ضعفنا ، ويقيل عثراتنا ، وينتشلنا من وحل الرذيلة، حتى نخرج من هذا التيه ، حتى ننتصر على عدوه وعدونا ، والقدير - جل في علاه - وعدنا وعد الصدق ، وأمرنا بالدعاء ووعدنا بالإجابة ، وقال : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ

ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : ٦٠] ، وقد أمرنا سبحانه فيه بالإكثار من الصلاة على نبيه ﷺ فقال : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** (٥٦) ﴾ [الأحزاب : ٥٦] ، فأكثروا من الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ ، حتى تكونوا على رجاء الإجابة .

فكل خير في اتباع من سلف ... وكل شر في ابتداع من خلف

وما لم يكن يومئذ دينًا فليس باليوم دينًا، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .



الفصل السادس

إلـى متـى التيـه

- وقفة صدق من النفس
- أسبـاب الخـذلان
- طريق واضح بين لا عوج فيه
- من كـان الله معـه فمـن عليـه ؟!
- وهل تُنصرون وتُرزقون إلا بضعفائكم

الفصل السادس

إلى متى التيه

عباد الله ، أما آن لنا أن نخرج من حالة التيه ؟ ، سؤال لابد من طرحه على النفس ، وطرحه أيضًا على الآخرين ، على المناظرين وعلى المحللين وعلى المربين ، وعلى من يزعم أنه الأب الروحي لدعوتك ، وعلى من ينتسبون للدعوة الأم التي يزعمونها ، لابد من طرح وعرض لهذا السؤال .

لماذا تأخر أمرنا ؟ ، لماذا لم يحدث عزنا وتمكيننا ؟ ، سنوات تلو سنوات ، مضت وانقضت ونحن في هذه الحالة ، هل كان ذلك بسبب عدم العلم ؟ ، أو بسبب تخلف العمل عن العلم ؟ ، هل كان ذلك بسبب غبشٍ في الطريق ، وعدم وضوح رؤية أو بصيرة ؟ ، هل تخلف وصرنا في حالة التيه ، مرحلة طالت سنوات طوال وإلا فدعوة النبوة كانت عبارة عن ثلاث وعشرين سنة ، أقيمت هذه الدولة التي انبهرت بها الدنيا بأسرها .

مَلَكنَا هَـذه الدُّنيـا قُـرُونًـا وسـادَهَـا جُـدودٌ خالـدونَ
وسطَّـرن صَحَائـفَ من ضيـاءٍ فمـا نَسيَ الزَمـانُ ولا نَسينَـا

كانت لهم الممالك ؛ فتحت لهم كنوز كسرى ، وقيصر ، وكان ذلك في سنوات معدودات ، ونحن نعيش حياة التيه منذ سنوات طوال ، قيل في حق بني إسرائيل ﴿ **قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ** (٢٦) ﴾ [المائدة : ٢٦] .

فهل عندما دخلنا في هذه المرحلة وفي هذه الحالة ، كانت عبارة عن أربعين سنة أو هي إلى الربعمائة أقرب ؟ .

وقفة صــدق مع النفس :

نحن نحتاج إلى وقفة صدق مع النفس ، ومع الدنيا من حولن ، تفتيشًا وبحثًا وإلا فالعملة الزائفة لا تروج على الله - تبارك وتعالى - والسُنن لا تعرف المحاباة ، لا تعرف المجاملات ، وعدٌ صادق ، وعد به سبحانه الخلق والعباد فقال : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾[النور : ٥٥] .

فهل تختلف معاني الإيمان ، المعاني الصالحة عنا ؟ ، وإلا فهذا وعد القدير - جل في علاه - قال : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[السجدة : ٢٤] .

هذا وعد ربك - جل وعلا - ، هذه هي عدة النصر والتمكين ، صبرٌ ويقين ، فهل تختلف هذه العدة ، ولذلك دخلنا في مرحلة التيه ، حالة لم نخرج منها حتى يومنا هذا،والكل يتشوف بنصرٍ وعزٍ وتمكين لدولة يتحاكم فيها بشرع الله ، يستطيع أن يتنفس تنفسًا سليمًا وصحيحًا ، ويُطيق عليه أمر الله - جل وعلا - فلماذا طالت بنا السنون على مثل هذا النحو ؟ .

كان لابد من وقفة صدق ، نبحث فيها ونفتش ، نعرض فيها أنفسنا على كتاب الله وعلى سُنَّة رسول الله ﷺ ، نترجم السُنن الشرعية والكونية إلى واقع عملي لماذا ضُرب لنا المثل بشأن بني إسرائيل ، هم شعب الله المختار ، أنجاهم الله

سبحانه ، أنجاهم من بطش فرعون وماكادوا يصلون إلى الشاطيء حتى قالوا لنبي الله موسى عليه السلام : ﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) ﴾[الأعراف : ١٣٨-١٣٩] .

تابوا إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ من فعلتهم ، أمروا أن يدخلوا الأرض المقدسة ، أن يدخلوا « أريحا » وأن يقاتلوا الجبارين فكان منهم النكوث على العقب ، قالوا : ﴿ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) ﴾[المائدة : ٢٢] .

امتنعوا عن الاستجابة لربهم ، فرض عليهم الجهاد فنكثوا على عقبهم القهقرة ، لم يمتثلوا فكانت النتيجة أن دخلوا في تيه ، قيل : ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦) ﴾ . [المائدة : ٢٦] .

كان لابد من تأمل وتدبر وإلا فالسُّنن لا تعرف المحاباة ولا تعرف المجاملات ، هي السُّنن لابد وأن نرفع بها رأسًا ، لابد وأن نحيا حياة البصيرة ، وإلا فإنا لا نجامل ، قد يقول للبعض : « نحن خير أُمَّة أُخرجت للناس » ، وصدق ، فإن لم ترفع رأسًا بهذه النعمة ، إن لم تعمل بمقتضاها فثق تمامًا أن شأنك قد يكون كشأن بني إسرائيل .

ومن تسائل : ألسنا ندعوا ؟ ، أليس فينا صالحون طيبون ؟ ، علماء ودعاة ، نقول لك : صدقت أيضًا ، وإلا فكان مع بني إسرائيل يومئذ نبي الله موسى ، ونبي الله هارون ، ونبي الله موسى هو أحد أُولي العزم من الرسل ، بل يذكر ابن عباس رضي الله عنهما أنه ما دخلا في التيه مع بني إسرائيل ، وهذا من شؤم المعصية ، بل ماتا في التيه كما يذكر العلماء . يكون هذا هو شأن الصالحين ، هذا هو شأن

نبي الله موسى ، وهذا هو شأن نبي الله هارون .

وأنت تتساءل اليوم : أين الصالحون منا ؟ أوليس فينا علماء ؟ ، فينا كل ذلك ، أولسنا ندعوا ولا يُستجاب لنا ؟ ، ولا نستطيع الخروج من حالة التية إلى يومنا هذا ، لابد من وقفه ، وقفه تبصر ووقفة تأمُّل ، لا داعي للغيبوبة ، لا داعي للغفلة ، لا داعي للفلسفات ، الأمر أبسط وأيسر من ذلك بكثير ، التهاون في السُنن هو سبب الدخول في حالة التيـة ، هذا هـو شأن بني إسرائيل ، قال : ﴿ **فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ** ﴾ [المائدة : ٢٦] .

هم شعب الله المختار ، هم أفضل أهل الأرض يومئذٍ ، ولكن لما تخلفوا عن الجهاد في سبيل الله ، لما كان منهم النكوث على العقب ، دخلوا في تيه أربعين سنة ، جماعة كبيرة من العقلاء يدورون حول أنفسهم ، هل سمعتم هذا التعبير المرتجل الذي تتكلم به أنت وأتكلم به أنا عندما نقول عن من انتابه الحيرة : هو يدور حول نفسه ، أو يلف حول نفسه ، وكذلك الأمر في فراسخ معدودة يدورون ويتحركون ويعودون إلى بدايتهم مرة ثانية ، تقول : لله في خلقه شئون ﴿ **فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** ﴾ [الحج : ٤٦] .

ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً ، وإلا فهي فراسخ معدودة ، لو عرضتها على العقلاء وخصوصاً عندما يكون منهم السعي والحرص على الخروج من هذا التيه وهم لا يستطيعون الخروج ، صرفوا عن الخروج من هذه الأرض ﴿ **جَزَاءً وِفَاقًا** (٢٦) ﴾ [النبأ : ٢٦] ، ﴿ **وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ** ﴾ [فصلت : ٤٦] .

يدورون حول أنفسهم طيلة هذه المدة في فراسخ معدودة وكلهم عاقل ، أو هكذا يزعم ، كلهم حرص على الخروج من هذا التيه ولكنهم لا يستطيعون ،

يدورون حول أنفسهم على مثل هذا النحو ، ولربما تشعر أنت بنفس الشعور على مستوى الفرض والدولة والجماعة ، ندور حول أنفسنا ، نعود من حيث بدأنا فما الذي يحدث؟ ، كان لابد من وقفة ، وقفة تأمل وإلا فانظر في قصة يأجوج ومأجوج ، تحكي السيدة زينب بنت جحش ـ رضوان الله عليها ـ أن النَّبيّ ﷺ استيقظ يومًا مزعورًا ، يقول : «**لا إله إلا الله ، ويلٌ للعرب من شر قد اقترب ، فُتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هاتين ـ وحلق بأصبعيه الإبهام والتي تليها** » ، قلت يا رسول الله : أنهلك وفينا الصالحون ، قال : « **نعم إذا كثر الخبث** » (١) .

إذا كثر الخبث هلكنا وفينا الصالحون ، وفينا الطيبون ، فينا العلماء الأجلاء ، فينا الدعاة المخلصون ، وهل سيكون شأن هؤلاء أعظم من شأن نبي الله موسى ؟ ، وأعظم من شأن نبي الله هارون ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ .

أنهلك وفينا الصالحون ؟ ، قال : « **نعم ، إذا كثير الخبث** » .

حكى لنا الصادق المصدوق ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ كيف أنهم ينقبون السد الذي أقامه ذو القرنين بينهم وبين غيرهم ، ممن أفسدوا عليهم حياتهم وحالهم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « **إن يأجوج ومأجوج يحفرون كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس ، قال الذي عليهم : ارجعوا فسنحفره غداً ، فيعيده الله أشد ما كان ، حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا ، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس ، قال الذي عليهم : ارجعوا فستحفرونه غداً إن شاء الله تعالى ، واستثنوا فيعودون إليه وهو كهيئته حتى تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس** »(٢) .

(١) البخاري ومسلم واللفظ للبخاري .
(٢) الترمذي وأبو ماجة والحاكم في المستدرك ، وحسنه الترمذي ورجاله ثقات .

قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ﴾ [الأنبياء : ٩٦- ٩٧] .

ولك أن تتأمل ، هؤلاء قوم من الكثرة بمكان ، ينقبون السد ، وأي سد هذا الذي يستعصي ولكن لما كان منهم النسيان لمعنى الاستثناء فقط ، فكيف بمن نسي دينه ، كيف بمن صار حربًا على إسلامه ، على شعائره وشرائعه ؛ إهمالاً للواجبات والمستحبات ، وإلا فهؤلاء لا يستثنون ، يعودون ويجدون السد على حالته وكأنهم لم يصنعوا شيئًا ، فإذا ما قال من عليهم : ارجعوا فستفتحونه غداً إن شاء الله ، يجدونه على حالته ، كلمة الاستثناء صنعت هذا الصنيع ، أي والله لا تهمل طاعة ،« **لا تحقرنَّ من المعروف شيئًا** » (١) ، هذا دين ، كيف بنا إذا ما عصينا جبار السماوات والأرض ، بنو إسرائيل وهم شعب الله المختار يومئذٍ ، اصطفاهم سبحانه على عالم أهل زمانهم ، لما تركوا الجهاد في سبيل الله ونكسوا على عقبهم القهقرة ، دخلوا في تيه ، دخلوا في تيه أربعين سنة ، وبالتالي إن مرت بك السنون ووجدت أنك تعود إلى حيث بدأت وحالك هو هو ، والأفراد والدول والجماعات يستأسد عليهم أراذل الدنيا ، أعداء هنا وهناك في الشرق والغرب ، يتعاملون معنا كما يتعامل مع العدو مع اليتيم ، ويصير حالنا كشأن اليتيم على موائد اللئام ، يستأسدون ، نعيش حياة الذلة والمهانة ، لك أن تطرح المسألة على نفسك ، وتقف وقفه صدق ، والمسألة ما تحتاج إلى فلسفات ولا فزلكات ، الأمر أيسر وأسهل من ذلك بكثير ، عودة إلى ما جاء في كتاب الله ، وفي سُنَّة رسول الله ﷺ ، ستستقرأ مواضع الأقدام ، لماذا تمر بنا السنة تلو السنة وأنت تعود إلى حيث بدأت ؟ ، فينا قصور ، فينا عوج ، لا بد وأن نعترف ، لابد

(١) مسلم والترمذي وابن ماجة والدارمي .

وأن نقر به ، وإلا فالغيبوبة وتناسى السُنن هلكة في العاجل وفي الآجل ، ثم هؤلاء وكأنهم بادوا ؛ انقرض الجيل الأول، جيل الآباء ، وفتحت « أريحا » ، فتحت الأرض المقدسة ، على أولادهم ، على صغارهم ، وهذا درس بليغ ، هل آن لنا أن تنقرض أجيال،حتى يأتي جيل مميز ،جيل طيب صالح، يتسق فيه العلم مع العمل، يجاهد فيه في سبيل الله جهاداً كبيراً ، ما يعكس المعاني الإيمانية ، ما ينفصل في حسه العلم عن العمل،ما تنفصم في حسه الدنيا عن الآخرة، ما يفصل ساعات بعضها عن البعض الآخر، لربما وإلا فجيل الصغار هو الذي فتحت عليه الأرض المقدسة ، لم ترهبه صولة العماليق الجبَّارين ، كانوا ضخام الأجساد ولكن ضعاف القلوب ، وما كادوا يدخلون عليهم الباب إلا وغلبوهم إلا وهزموهم بإذن الله تعالى ﴿ **وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ** ﴾ .

[الأنفال : ١٠] .

فلمَا التهويل ، ولما التهوين ؛ البعض يحلو له أن يهول من شأن الأعداء ، يرجف ويتخاذل وهذا هو شأنه ، ولذلك يعود إلى وراء وراء ، يدخل في مرحلة التيه ، والسُنن لا تعرف المحاباة ، عَرِفَ وتَعَلَمَ وقَرَأَ وطَالَع أن الصبر واليقين هما العدة وأن الأعداء ما يصح أبداً تهويل قوتهم ، ولا تهوين من شأن المسلمين ، لابد من توكل على الله ثقة فيما عند الله ، وإلا ؛ «**ما ترك قوم الجهاد ، إلا عمهم الله بالعذاب**» [(١)] ،ترك الاستثناء يعود به الحال إلى أشد من ما نحن عليه، فما بالك إن تخلف علمنا عن عملنا ، أن يكون حالنا كحال الذين قالوا : ﴿ **ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ** ﴾ [التوبة : ٨٦] .

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط عن شيخه علي بن سعيد الرازي ، وكذلك الهيثمي في المجمع وقال الذهبي : روى عنه الناس ، أي: على سعيد بن الرازي .

أسبـــاب الخــــذلان :

جرت الدنيا منا مجرى الدم من العروق ، كما أشرب بنو إسرائيل حب العجل بكفرهم ، وكان ضياع ؛ عادوا إلى وراء وراء ، وكان هذا هو شأنهم ، بعد أن كانوا شعب الله المختار ، يصير شأننا كشأنهم ، ولا تعلل ولا عذر لمن قال : نحن خير أُمَّة أُخرجت للناس ، أولسنا مسلمين ؟ ، صرنا حربًا على إسلامنا ، على ديننا ، أحسن الناس حالاً بحاجة إلى وقفة صدق حتى يتوافق علمه مع عمله ، حتى لا يعيش حياة التخذيل ولا التهوين على مثل هذا النحو ، ترتفع هامته بارتفاع دعوة الإسلام إن كان منا النكوس على العقب القهقرة ، فلا تستبعداً أن يكون الخير والبركة والفتح المبين على يد صغارنا ،على يدي أبنائنا ، وحينئذٍ لا تلومن إلا نفسك ، تقول : هؤلاء صغار كيف يفتح عليهم ؟ ، ما فتحت « أريحة » ، ما فتحت الأرض المقدسة إلا على يوشع بن نون ، وهو فتى نبي الله موسى - صلوات الله وسلامه عليه - هو الذي حبست عليه الشمس عندما تكون مطيعًا لله ، لا تستبعدون تسخيرًا لهذه السُنن الكونية هذه الشمس الجبارة التي لو اقتربت منا لأحرقتنا ، حبست على نبي الله يوشع - صلوات الله وسلامه عليه - ، حُرِّم عليهم القتال يوم السبت وكادت الشمس تغرب يوم الجمعة ، فماذا يصنع، قال : إنكِ مأمورة وأنا مأمور ، فأحبسها علينا، فحبست عليهم الشمس ، آية بينة والرب قدير - جل في علاه - يصنع بك الأعاجيب ، إن تعلق قلبك به ، إن أخلصت قلبك له ، إن وثقت فيما عنده ، وما النصر إلا من عند الله ، فلما التهويل من جهة والتهوين من جهة آخرى صغار ستفتح عليهم الأرض المقدسة، كما فتحت على نبي الله يوشع - صلوات الله وسلامه عليه - ، ولا تستبعداً ذلك ، فالتلميذ قد يفوق استاذه ،ولا حجر على سعة رحمة الله ، أنت الذي تؤخر

نفسك ، أنت الذي خلقت نفسك إلى وراء وراء ، وإلا فهؤلاء صغار سيدخلون الباب عليهم ، فتفتح عليهم هذه الأرض المقدسة ، وينتهي أمر العماليق ينتهي أمر الجبارين وأنت شاهد على ذلك ، والشواهد كثيرة .

فخذ مثل عبد الله الغلام ؛ هذا غلام تربى على يدي الراهب ، والراهب أحسنَ تربيته ، فكان الغلام آية ، فاق أستاذه ، فاق الراهب باعترافه ذاته ، حتى قال له الراهب : إنك اليوم أفضل مني وإنك ستبتلى ، أخذ حجرًا لما اعترضت الدابة طريق الناس ، وقال : اليوم أعلم أأمر الله أحب إلي الله أم أمر الساحر ، وقذف بحجر لا يكاد يصيبب الإنسان بخدشٍ ، فوقعت الدابة صريعة ،وكانت آية بينة ، كانت كرامة ، هذا هو فعل الله بأوليائه : ﴿ **إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ (٥١)** ﴾ [غافر : ٥١] .

ويعود الغلام إلى معلمه إلى الراهب يحكي له ما حدث ، فيقول له : أنت اليوم أفضل مني وإنك ستبتلى ، فإن ابتليت فلا تخبر عني ، كان هذا هو الشأن والحال ، والبعض يأبى إلا أن يحجر الواسع ، هو المنُظَر الكبير وهو العالم الأوحد ، وهذه هي الدعوة الأم وتحجير الواسع ، وياليتنا استقمنا على دين الله وعلى سُنَّة رسول الله ﷺ ، أحسنا المسير إلى الله ، تعرف كيف ما شئت ، وتعلَّم أيضًا كما شئت، فإن لم يتواكب العلم مع العمل لا تلومن إلا نفسك؛ هي السُنن، قال سبحانه وتعالي : ﴿ **أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ** ﴾ [آل عمران : ١٦٥] .

شرعت الآية توضح الأسباب ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ** ﴾ [آل عمران : ١٥٢] .

فإذا ما رأيت استئساد يهود وأمريكان وغرب ، قل لنفسك : أنا السبب ، هذا التفريط الذي أحيا به ، عدم المصادقية هو الذي مكّن شياطين الإنس والجن من رقبتي .

« **يوشك أن تتداعى عليكم الأمم ، كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها** » ، قالوا : أمن قلةٍ نحن يومئذٍ يا رسول الله ، قال : « **بل أنتم يومئذٍ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله المهابة من قلوب أعدائكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن** » ، قالوا : وما الوهن يا رسول الله ، قال : « **حُبّ الدنيا وكراهية الموت** » [١].

طريــق واضح بيّن لا عــوج فيه :

﴿ **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨)** ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

قصة حكيت لرسول الله ﷺ فيها تسلية فيها تثبيت لقلب رسول الله ﷺ ، توضيح لمعالم الطريق ، وفيها أيضًا بيان لنا ولغيرنا من البشر ، عندما نتكلم ونعيش تيهًا آخر ، فلا نكاد ندري ، ما هي المقدمات وما هي النتائج ، لا نكاد ندرك العلاقة بين الأسباب والمسببات ، العلاقة وثيقة ، كل علاقة لها تأثير ، كل مقدمة لها نتيجة ، خُولف نبي الله موسى - صلوات الله وسلامه عليه - لم يرفع بها رأسًا ، بهذه النعمة التي امتن به سبحانه عليهم ، خالفوا نبيهم وكذلك كان الأمر بالنسبة لقوم رسول الله ﷺ ، لم يرفع رأسًا بهذه النعمة المهداة ، فكان ما كان ، قص سبحانه وتعالى عليه القصص ، وقال عن نبيه موسى عليه السلام مذكرًا نبيه

(١) أبي داود وأحمد ، صححه العلامة الألباني والعلامة أحمد شاكر في مسند الإمام أحمد .

ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٠) ﴾ . [المائدة : ٢٠] .

امتن عليهم سبحانه بنعمة المنِّ والسلوى ، بنعمة الإنجاء من فرعون ، صاروا ملوكًا لأمرهم ، بعد أن كانوا مأمورين ، مغلوبين ، كانوا يخدمون القبطة من سكان مصر ، ثم ملك الواحد منهم دارًا وخدمًا وزوجة ، صار ملكًا بذلك ، ملكًا بأمره ، ما يقهره أحد عليه ، ذكرهم نبي الله موسى بكثرة الأنبياء فيهم ، قال : ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٠) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) ﴾ [المائدة : ٢٠ - ٢١] .

كتب عليهم الجهاد ، فرض عليهم القتال ، لما خرجوا من هذه الأرض وأنجاهم ربنا من بطش فرعون وملأه ، أمروا بالقتال في سبيل الله ، هذه حياة المؤمنين ، هذه الحياة ؟ ، لابد من إقامة واجب العبودية ، تنتقل من ساحة جهاد إلى ساحة جهاد والراحة عند أول قدم تضعها في الجنة ، ومن طلب الراحة هنا أخَّر نفسه وعاد بنفسه إلى وراء وراء ، فلما فرض عليهم القتال ، والقتال مفروض على سائر الأمم ، وإن لم ترفع رأسًا ، جاهدك أعداء الإسلام والمسلمين ، نشرًا لديمقراطية ولإشتراكية ، أبادوا البلاد والعباد ، دمروا الخلق ، دمروا شيوخ رُكَّع وبهائم رتع ، لماذا يصنعون هذا الصنيع ، قف مع نفسك وقفة صدق ، وإلا فستأخر هذه النفس، أمرهم نبي الله موسى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ، قال لهم: ﴿ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ ـ وهي أريحا يومئذٍ ـ ﴿ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) ﴾ [المائدة : ٢١] ، حذرهم ، وضح لهم

طبيعة الطريق ، والشريعة لا تعرف المحاباة ، ولا تعرف المجاملات ، فقالوا : ﴿ **يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ** ﴾ كانوا من جملة العماليق ، سكنوا فلسطين ، وكانت قاعدتهم في دمشق ﴿ **إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا** ﴾ ، وكأنهم أرادوا حياة الدَّعة ، حياة الراحة ، يدخلون الأرض المقدسة بلا قتال ، انظروا : فقالوا له : ﴿ **قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٣)** ﴾ [المائدة : ٢٢-٢٣] .

قال ذلك يوشع، وكالب بن يوقنه ، قال لهم هذه المقولة : مقولة إيمانية ، رجلان أنعم الله عليهما بنعمة الإسلام ، بنعمة اليقين بصواب الرأي ؛ ﴿ **ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ** ﴾ وكانوا قد وعدوا أنهم متى دخلوا عليهم الباب كانت لهم الغلبة كان لهم النصر على هؤلاء العماليق ، كان وعد القدير ، ولكن البعض لا ثقة عنده ، لا إيمان لديه ، لا يقين له ، حتى وإن صلى وصام يتخلف ظاهره عن باطنه ، يتخلف قوله عن فعله ، وما يضر إلا نفسه ، ما يضر الله تبارك وتعالى شيئًا ، قالوا : ﴿ **ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ** ﴾ أمروا إذا ما دخلوا انتصروا قيل لهم : ﴿ **وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [البقرة : ٥٨] .

التخلف تلو التخلف، قالوا: حنطة ، دخلوا على أسداههم يزحفون ، قالوا : حنطة أو حبة في شعرة ، قال سبحانه : ﴿ **فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ** ﴾ [البقرة : ٥٩] .

وكان تبديلاً منهم استحق الخزي والمعرة ، استحقوا بها أن يعودوا إلى وراء

وراء ، نتيجة كلمة ، حرف بدَّلوه ، قالوا : حنطة ، ماذا يكون شأنك وحالك إذا ما قيل لك : ﴿ **الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ** (٥) ﴾ [طه : ٥] ، فقلت : أنت استولى فكنت أنت المغير ، كنت أنت المبدل ، تستأهل نصرًا وعزًا وتمكينًا ، وقس على ذلك ما هو مساويء له ، وقد يكون أعظم منه ، تركنا ديننا وراءنا ظهريًا ، ثم تنتظر نصرًا وعزًا وتمكينًا ، تقول : لماذا نتأخر ؟ ، ولماذا نصير إلى وراء وراء ؟ ، أو لسنا مسلمين ؟ ، راجع نفسك ، راجع إسلامك ﴿ **قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ** (١٠٨) ﴾ [الأنبياء : ١٠٨] ، رضينا بالله ربًا وبالإسلام دينًا ، وبمحمد ﷺ نبيًا ، عساه سبحانه يغيِّر بنا وجه الأرض ، وإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، كلمات إيمانية نطق بها الرجلان ما طالبوا القوم بالمستحيل ، لا أبدًا ، توكل على الله ، إيمان ، ثقة في ما عند الله ، امتثال لأوامر الله - جل وعلا - .

﴿ **ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ [المائدة : ٢٣] .

من كان الله معه فمن عليه ؟! :

﴿ **أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ** ﴾ [الزمر : ٣٦] .

من كان الله معه فمن عليه ؟ ، أترهبنا قوة غربية أو شرقية ، أيستأسد علينا الأراذل ؟ ، عندنا بضاعة إيمانية غالية ، إن تمسكنا بها غيَّر بنا سبحانه وتعالى وجه الأرض ، ولا تستبعدن أن نسود الممالك هنا وهناك ، شريطة أن نعمل بمعاني الإيمان ، « **لا تزال طائفة من أُمَّتي ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من**

خزلهم أو خالفهم ، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك » [١] .

قد يكون مغمورين هنا وهناك ، ينصحون ، لكن الأمة ما ترفع رأساً بنصيحتهم ، بل يحكون في التاريخ وفي السير أنهم كادوا يفتكون بالرجلين الصالحين ، كادوا يرجموهما ، قالوا : أنسمع لرجلين ونترك قول عشرة ، وكانوا قد بعثوا النقباء يبحثون فأفادوهم بخير العماليق، فقالوا ما قالوا : ﴿ **قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤)** ﴾ . [المائدة : ٢٤] .

هل هذا فعل من استشعر الإحسان ، هل هذا شأن من أسلم وجهه لله ، يكون منه سوء الأدب مع دينه ، مع أوامر ربه على مثل هذا النحو ﴿ **فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ** ﴾ [المائدة : ٢٤] ، كان هذا هو شأنهم ، كان هذا هو حالهم ، حالة النكوس على العقب ، حالة اليأس من المسلم ، رفض الأمر ، فهل يتقدم عبدٌ بذلك ؟ .

الكون منظم،الكون محكوم يسير وفق أمر الله ﴿ **وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا** ﴾ [الأحزاب : ٣٨]، قالوا : ﴿ **فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ** ﴾ ، ما هذا شأن الصالحين ، ولذلك المقداد ـ رضوان الله عليه ـ يوم بدر قال للنَّبيِّ ﷺ : « ما نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ **فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ** ﴾ ، ولكن نقول : اذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا معكم مقاتلون » ، فكان النصر عندما يحدث التسليم لأمر الله ، الإذعان لحكمه سبحانه ﴿ **وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣)** ﴾ [آل عمران :١٢٣] ، ﴿ **وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ** ﴾ [الأنفال : ١٠] .

---

(١) البخاري ومسلم .

جحافل جرارة ينتصر عليها ثلاثمائة رجل وبضعة عشر رجلاً ، ما هي عدة نصرهم إلا الإيمان ، إلا التوكل على الله ﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) ﴾[المائدة : ٢٤] .

كانت المفارقة : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) ﴾[المائدة : ٢٥] .

وبعض العلماء يقول : كان كفراً منهم ، أو وصفوا بالفسق ، فسق وخروج من طاعة الله ﴿ فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦) ﴾[المائدة : ٢٦] .

ثم وردت قصة ابني آدم ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) ﴾ .
[المائدة : ٢٧] .

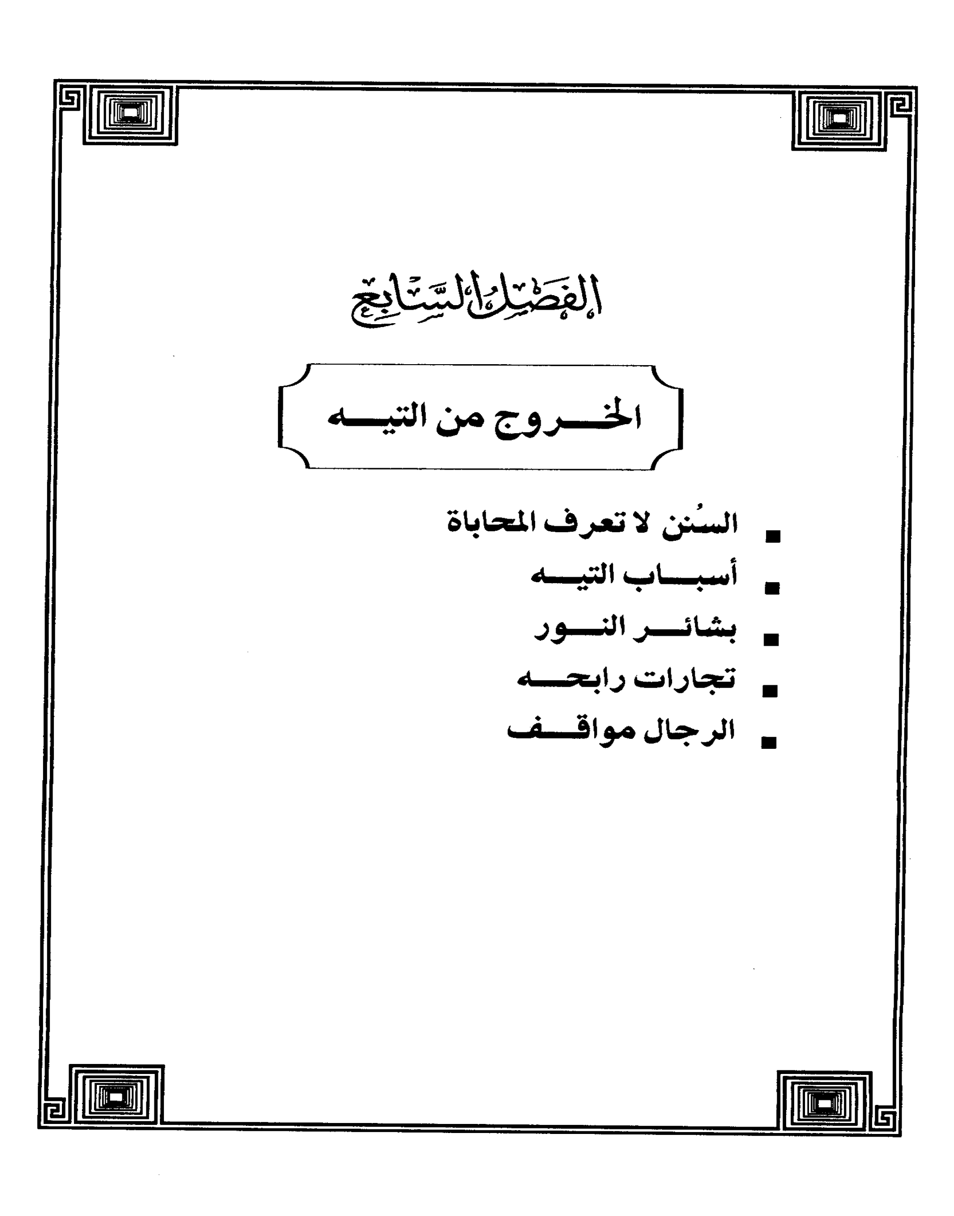
وهل تُنصرون وتُرزقون إلا بضعفائكم :

محتاجين لأن نتحقق بمعاني التقى ، بمعاني الهدى ، وإلا فالفقراء مُضَيَّعون، والصبر مهمل ، والتقوى زائلة ، وهل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم ، العملة المغشوشة لا تروج على الله ، إن استمرارنا في التيه أربعين سنة أو قل ربعمائة سنة، لا تلومن إلا نفسك ، هي السُنن لا تعرف المحاباة ، ولا تعرف المجاملات ، ولو تسائل سائل وقال : هذا هو قدر الله فينا ؟ ، قلنا : حق ولكن لا يحتج بالقدر على المعايب ، لابد من الأخذ بالأسباب ، لابد من إسلام الوجه لله يغير بنا سبحانه ، كما غيَّر بسلفنا الصالح : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[الرعد : ١١] .

نخرج من حالة التيه ، ينصرنا سبحانه نصرًا عزيزًا مؤزرًا حتى وإن قل العدد، حتى وإن قل العتاد ، والمسائل ما تؤخذ بكثرة ولا بقوة ولا بقلة ، ما تؤخذ بضخامة أجسام ، بكثرة عدد أو عتاد ﴿ **وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ** ﴾ .

[الأنفال : ١٠] .

هو الذي نصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، فلابد من إسلام الوجه لله والإعتصام بحبله المتين ، وبذكره الحكيم ، وصراطه المستقيم ، ومن اعتصم بالله فقد هُدى إلى صراط مستقيم .



الفصل السابع

الخـــروج من التيـــه

- السُنن لا تعرف المحاباة
- أسبـــاب التيـــه
- بشائـــر النـــور
- تجارات رابحـــه
- الرجال مواقـــف

الفصل السابع

الخـــروج من التيـــه

دخل بنوا إسرائيل التيـه أربعين سنـة ﴿جَزَاءً وِفَاقًا (٢٦)﴾ [النبأ : ٢٦] ، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت : ٤٦] ، وإلا فقد أعرضـوا عن أمـر نبيهــم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ موسى ، عندما أمرهم بالدخول على العماليق قالوا : ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢)﴾ [المائدة : ٢٢] .

قالو له أيضًا : ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤)﴾ [المائدة : ٢٤] .

وقال سبحانه : ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦)﴾ [المائدة : ٢٦] .

كان هذا هو شأنهم ، وكان هذا هو حالهم ، دخلوا في هذا التيه أربعين سنة كاملة ، بسبب خذلان نبيهم ، بسبب عدم الانصياع لأمر الله تبارك وتعالي ، بسبب ترك الجهاد في سبيل الله ، وإلا فلو أذعنوا لانتصروا على عدوهم ، وهذا هو الذي تحقق لأبنائهم، ما كادوا يدخلون الباب إلا وانتصروا على العماليق ، وكانوا قد أمروا بذلك ، وكانت هذه علامة وبشارة ولكنهم لم يتوكلوا على الله ولم يزعنوا لأمره سبحانه ، فكان الخذلان من نصيبهم ، هو الحتم اللازم لكل من أعرض عن ذكر ربه تبارك وتعالى ، هذا هو شأنهم ، وهذا هو شأن غيرهم ، وإلا

فهذه القصة التي قصت على رسول الله ﷺ فيها عظات وعبر لا تقتصر على بني إسرائيل ، بل وتتعداهم لغيرهم ممن عمل بعملهم وسلك مسلكهم ، والشريعة لا تفرق بين المتساويين ولا تساوي بين المختلفين ، وهذا هو عدل ربك - تبارك وتعالى - العدل أساس الملك وبه قامت السماوات والأرض ، وإلا ففتحت هذه الأرض المقدسة على الأبناء؛ ما كادوا يدخلون الباب إلا وانتصروا على العماليق ، وكان بعض الصالحين منهم كان الإثنان قد ودعوا وذكروا وقالوا لهم ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٣)﴾ [المائدة : ٢٣] .

السُنن لا تعـــرف المحابـــاة :

وأنت عندما تنظر في حالة هذه الأمة ،دخلت هي الأخرى تيهًا، لا أقول منذ عشرات السنين، بل منذ مئات السنين، الأمر الذي يستوجب وقفات وإلا فالمسألة ما تحتمل قولاً عارضًا، لابد من وقفة نستلم فيها العظات والعبر ، لماذا نجح من نجح ؟ ، لماذا وُفقَ من وفق ؟ ، ولماذا خذل من خذل ، لماذا نُحرَم بركة العلم النافع والعمل الصالح ؟ ، لماذا نظل في تيه ؟ ، لماذا نظل نحيا حياة المذلة والمهانة ؟ .

يتعامل معنا كاليتيم على موائد اللئام ، إن تقدمنا خطوة رجعنا خطوات إلى الوراء ، هل هذا لغياب الصالحين فينا ؟ ، أليس فينا علماء ودعاة ؟ ، أليس فينا من يجأر إلى الله - تبارك وتعالى - بالدعاء آناء الليل وأطراف النهار ؟!! ، فلم الحال على هذا النحو ؟ ، عشرات السنين أو مئات السنين ونحن على حال أشبه بمرحلة التيه التي دخلها بنو إسرائيل .

والبعض قد يتعجب منهم ويقول : دخلوا التيه أربعين سنة . دخلناه أكثر

وأعظم من ذلك ، وربك - تبارك وتعالى - جرت سُنَّته في الخلق ، لا محاباة ، نعم نحن خير أُمَّة أُخرجت للناس ، وهم كانوا شعب الله المختار ، فيهم نبي الله موسى - صلوات الله وسلامه عليه - ، وفيهم أيضًا نبي الله هارون - صلوات الله وسلامه عليه - كان يعد ويذكر ، كان يقول لهم : ﴿ **اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** ﴾ [الأعراف : ٦٥] ، لم يدخر وسعًا في إبلاغ الحق للخلق ، وأنت قد تتعلل بهذا الصالح أو بنفسك ، أنك بلغت الحق للخلق ، لم تدخر وسعًا ، فلم يُتحدث ويُتكلم عن التيه ؟ ، أو كيف ندخل تيهًا كهذا وفينا رسول الله ﷺ ؟!! .

والبعض يقول : أولسنا مسلمين ؟ ، كل ذلك حق ، ولكن كل مقدمة لها نتيجة وكل عقيدة لها تأثير عندما تشاهد هذه المذلة ، معاني المعاناة ، عندما يتمكن الأراذل من رقابنا ، لا أقول عبر سنة أو سنتين أو حتى عشر سنوات ، سنوات طوال ونحن على مثل هذا النحو ، الأمر الذي يستدعي وقفات ، هل نتعلل بالقدر ؟ ، هل نقول : هذا هو قدر الله فينا ، وكأننا قد أسلمنا وجوهنا لله ونعترف بقدر الله ، هذه غيبوبة ما تليق بأمثالكم ، وإلا فالقدر لا يحتج به في المعائب ، إنما يحتج به في المصائب فقط ، والواجب على الأمة أن تأخذ بالأسباب حتى تخرج من مرحلة التيه ، حتى تخرج من عوجها ، حتى تخرج من مذلتها ومهانتها ، الواجب علينا أن نأخذ بالأسباب الشرعية للخروج من الواقع السيء ، كما فعل صحابة رسول الله ﷺ المرة تلو المرة ، ونحن نواجه قدر بقدر ، وقضاءً بقضاء ، كما نواجه قدر البلاء بقدر الدعاء ، وقدر الأكل بقدر الطعام ، وقدر العطش بقدر الشرب ، فكذلك الأمر ، نواجه ذلك الواقع السيء بالعمل بالأسباب ، بالأخذ بأسباب القوة : ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ** ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

والمؤمن القوي خيرٌ وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، هل نستسلم لبعض المعاني التي لم يفهمها البعض ؟ ، وكانت تكريسًا لواقع سيء ، عندما يقرأ مثلاً قول النَّبيّ ﷺ : « **لن يأتي على الناس زمان إلا والذي بعده شرٌ منه** » (١) .

هل نحتج بمثل ذلك ؟، هل ننتظر ظهور المهدي ؟ ، أو نزول المسيح ، أوقات خيرات وبركات ، أتنتظر هذه الأوقات ؟ ، أم أن الواجب علينا أن نعمل بطاعة الوقت ، أن نعتصم بحبل الله المتين ، وبذكره الحكيم وصراطه المستقيم ، تنظر في حالتك وفي حالة الدنيا من حولك ، لا تجد إلا تيهًا ، ماذا يكون الشأن والحال لو داهمنا العدو ، لو دخلوا هذه الديار ؟ ، ماذا يكون شأنك وأنت طري؟ ، حتى وإن اعتملت الحماسة في نفسك، حتى وإن تعرفت على جهاد الدفع وجهاد الطلب ، وحتى وإن لم تعلم ذلك فالفطرة تدعوك ، صيانةً للأعراض وللنساء وللأولاد ، تستدفعهم ، أين القوة الموجودة ؟ .

حالة طراوة تعتمل الخلق ، وأنت ترى جيوشًا تاهت في التاريخ لم يعثر لها التاريخ على أثر ، كانت ملأ السمع والبصر ، وما هي إلا ساعات معدودات ، حتى غابت واختفت ، أين هي الآن ؟! ، هل هي البعثية ؟ ، هل هي القومية ؟ ، هل هي الوطنية ؟ ، ستقول هو البعد عن منهج الله ورث البلاد والعباد إلى وراء وراء ، تكون المذلة وتكون المهانة ، الأمر الذي يستوجب وقفات وقفات صدقٍ، عسى ربنا - تبارك وتعالى - يغيِّر حالنا لأحسن الأحوال ، وإلا فهذا الحال المريب الذي نتأمله ونعيشه ، هو حال لابد من تغيره : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ [الرعد : ١١] .

تخلفنا عن العلم النافع ،وعن العمل الصالح ،وكان الخذلان من النفس أولاً،

(١) البخاري والترمذي وأحمد .

ولذلك قال نبي الله موسى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ : ﴿ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ﴾ [المائدة : ٢٥-٢٦] ، لماذا كان فسقهم وكانوا شعب الله المختار ، لكونهم تخلفوا عن أمر الله ، والسُنن لا تعرف المحاباة ، لا تعرف المجاملات ، قضية واحدة تخلفوا عنها ، استوجبوا الدخول في التيه ، على مثل هذا النحو ، فهل تخلفنا عن دين ربنا ؟، هل خذلنا نبينا ﷺ ؟ .

انظر: المسألة لا تحتمل تفتيشًا ولا اكتشافًا ولا اختراعًا ، ستجد الكثير والكثير ، صرنا حربًا على إسلامنا وديننا ، وكأن الإسلام ينادينا من مكان بعيد ، تفشت فينا « الصوفية » و « الشيعية » ، بل قل « والأشاعرة » ، الذين ينسبهم البعض لأهل السُّنَّة والجماعة ظلمًا وزورًا ، يأولون الصفات ، وأضف إلى ذلك الكثير والكثير ، وإلا فبنوا إسرائيل لما قيل لهم ﴿ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة : ٥٨] ، ما قولوا إلا : حنطة ، أو قالوا : حبة في شعرة ، قال سبحانه : ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩) ﴾ [البقرة : ٥٩] .

كل ذلك يحدث معهم ولهم بسبب التبديل والتغيير، أي والله وربك يغار ، إذا ما انتهكت محارمة فما بالك وهذا يصرف العبادة « للسيد البدوي » وآخر يذبح « لأبي العباس المرسي » ، عبادات صُرفت لغير الله ، أيرضي هذا ربك تبارك وتعالى ؟ .

أتتحقق البركات والخيرات ؟ ، أنخرج من تيه ؟ ، وهذا هو حالنا بل كان هذا هو حال الكثيرة الكاثرة من الخلق ، هذا يشرع مع الله ، ينصب لنفسه ندًا وإلهًا مع الله ، ويضفي عليه وصف المُشرِّع ، والبعض ينادي بديمقراطية ، وكأنه لا

يعرف له ربًا ولا دينًا،وكأنه لم يقرأ قوله سبحانه : ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ** ﴾ [آل عمران : ١٩] ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥)** ﴾ [آل عمران : ٨٥] .

أسبـــاب التيــــه :

نواجه المصائب برقص وغناء ، نواجهها بلعب ، الكل قد ينصرف حتى عن صلاته ، عن درسه بسبب هذا اللعب ، الأعداء ينتهكون البلاد والعباد ، ثم البعض ما زال يتحدث ويتكلم هل وجدوا أسلحة الدمار الشامل أم لا ؟ .

المشتكى لله وحده ، نقول : غيبوبة ، نقول : انتكاسة عقل وقلب ، وإلا فهؤلاء الأعداء انتهكوا حرمة البلاد والعباد ، وأنت ما زلت تتحدث عن « الديمقراطية » ، تتحدث عن قضاءهم على « الديكتاتورية » وأنهم بذلك سينشرون الرخاء في البلاد والعباد ، هل هذه حالة أُمَّة ورثت دين ربها ؟ ، ورثت ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ** ﴾ [آل عمران : ١١٠] ، تحيا حياة الغيبوبة على مثل هذا النحو، هذا الإرهاب الذي يمارسه أعداء الإسلام والمسلمين مع المسلمين ،كان يستوجب انتفاضة، قومةً ، اعتزاز بدين الله ، رد للعدوان وللبغي وللظلم،أن نعتصم بحبل الله المتين، أن ننادي بإسلامنا وبديننا،نقول :وا إسلاماه .

ولكن البعض دخل في تيه جعله يتكلم عن « الديمقراطية » وأنهم ينشرون الرخاء في البلاد والعباد، وأنهم يبحثون عن أسلحة، وهم الذين دمَّروا الخلق؛ أبادوا شيوخًا رُكع ، وبهائم رُتع ، وأطفال رُضع ، ثم إذا قام البعض يواجهونهم استحقوا كل نعوت التنفير ؛ إرهابًا وتطرفًا ، وغير ذلك من المعاني التي تدل على انتكاسة عقل وانتكاسة قبل ، تيه في كل مظاهره يعتمل في هذه الأمة ، وَالينا

أعداء الإسلام والمسلمين ، وعادينا المسلمين هنا وهناك ! ، فما الذي تنتظره ؟ ، كل مقدمة لها نتيجة ، كل عقيدة لها تأثير : ﴿ **وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ** ﴾ . [فصلت : ٤٦] .

وبالتالي ندخل في مرحلة التيه على مثل هذا النحو ، والبعض قريب الشبه بالمنافقين الذين يبتغون عند الكافرين العزة ، فمآلهم وعزتهم يتصورونها عند أعداء الإسلام والمسلمين ، ولذلك يزدادون خذلانًا على خذلانهم ، عندما يتسلط الأراذل على الأخيار ، عندما يتسلط هؤلاء على الصالحين من عباد الله ، حدث عن الدمار ولا حرج، عندما تنقلب الموازين بهذه الكيفية تبحث وتفتش، تجد الكثير والكثير مما هو أعظم وأشد مما كان عليه بنو إسرائيل ، ولذلك يدخلون التيه أربعين سنة ، وأنت تستطيل المدة ، تقول : أربعين سنة يتيهون في الأرض ونحن قد دخلنا في تيه ، منذ ما هو أعظم وأكثر من ذلك بكثير ، والأسباب أعظم وأشد ، هذا هو حالنا ، لا يخفى على أحدٍ ، ولذلك كان على الدعاة إلى الله ، كان على كل مسلم أن يتبصَّر لأمر الداء وأمر الدواء ، لا يصح أبدًا وإن كنا نعاني من المرارة والألم ، لا يصح أن نحيا حياة الغيبوبة، وإلا فالبعض يتسائل يقول : أولسنا مسلمين كيف يتسلط يهود ؟ .

أنت حربٌ على إسلامك ودينك ، تصد عن سبيل الله ، تنفر من طاعة الله ، تستخف بالسُّنن ، لا أتكلم الآن على لحية ولا على نقاب ، ولا غير ذلك من الطاعات والقربات ، حالنا أنكى وأمَر من ذلك بكثير ، وبالتالي أن نجني ثمار المرارة ، أن نجني ثمار المذلة والألم ، أن ندخل في تيه كهذا ، ندخل في التيه على مثل هذا النحو لسنوات طوال ، لابد من قراءة السُّنن الكونية والسُّنن الشرعية قراءة واعية ، نحن بحاجة لوقفة صدق، وإلا فقد فتحت أبواب السماء

لبعض الخلق، هل أغلقت دوننا؟ ، والبعض يتعجب ويتساءل : لماذا لا يستجاب لدعائنا ؟ ، على الأقل في رمضان وفي خطب الجمعة ! ، نرفع أكف الضراعة لخالق الأرض والسماوات ، فينا صالحون يجهرون بكلمة الحق ، فينا دعاة ، يقولون للنفس والأُمَّة : ﴿ **اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ** ﴾ [الأعراف : ٦٥]، والأمس قد يكون كاليوم ، وغداً قد يكون كالأمس .

بشائر النور :

نعم هناك بصيص من نور ولا نيأس ، ولا نيأس الخلق من رحمة الله ، ولكن محتاجين لوقفة صدق؛ على الأقل تقول : المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين ، لماذا دخلنا في مرحلة التيه هذه ؟ ، هل أغلقت الأبواب ؟ .

وإلا فأنت عندما تقرأ وتطالع تجد الكثير والكثير مما عليه الصالحون ما يكاد الواحد يجأر إلى ربه إلا وتنفتح الأبواب ، يجبر الكسر ، يرحم الضعف ، نبي الله موسى - صلوات الله وسلامه عليه - ما كاد يقول : ﴿ **رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ** ﴾ [القصص : ٢٤] ، إلا وجاءته إحداهما تمشي على استحياء ، هل كانت أبواب السماء مفتحة ؟ ، لماذا لم تفتح لأمثالنا ولغيرنا ؟ .

الأمر الذي يستوجب وقفة صدق ، لا داعي للمهاترات ، لا داعي للإفراط ولا للتفريط في الحسابات ، وقفة صدق عسى الإنسان يداوي نفسه ، عساه يأخذ بالأسباب الشرعية .

نبي الله موسى - صلوات الله وسلامه عليه - عندما قال لبني إسرائيل : ﴿ **قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢)** ﴾ [الشعراء : ٦٢] ، ما كاد يقولها إلا وأُمر ﴿ **أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣)** ﴾ [الشعراء :

٦٣] ، نبي الله زكريا ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ : ﴿ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ ﴾ [مريم : ٣] ، ما سمعه أحد ، نادى ربه نداءً خفيًا ، قال : ﴿ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ ﴾ [مريم : ٤ – ٥].

فكانت البشارة بنبي الله يحيى ، فتحت له أبواب السماء لحظات معدودات يجبر فيها الكسر ويرحم فيها الضعف ، ونحن ندخل كأمة في تيه كهذا عبر مئات السُنن ، الأمر الذي يستوجب وقفة ، وقفة عسانا نستمطر رحمة ونستدفع نقمة ، نبحث ونفتش ، نعالج هذه العلل التي تفشت في الأُمَّة ، والتخلية قبل التحلية ، تنظر أنت وتفتش في أحوال الصالحين من قبل ، تجد الكثير والكثير ؛ عاصم بن ثابت يوم الرجيع ـ رضوان الله عليه ـ لما أحاط به المشركون إحاطة السوار بالمعصم ، رجل ما فرط في الأخذ بالأسباب ، اخترط سيفه لما أحس بدنوا أجله ، دعا ربه وقال : اللهم إني حميت دينك أول النهار فاحمي لحمى آخره ، بحثوا عنه وفتشوا فما وجدوا له أثرًا ، أرسل ربنا ـ تبارك وتعالى ـ الدبر بعد مصرعه ، فحماه فلم يصل إليه المشركون ، وهمتهم متدافعة لحيازة رأس عاصم بن ثابت ـ رضوان الله عليه ـ طلبًا للغنيمة وللنكاية التي أحدثها فيهم ، أرسل ربك الدبر فحماه أول النهار ، ثم الطوفان فجرفة آخر النهار ، فلم يعثروا له على أثر .

هل كانت أبواب السماء مفتحة ، وهو يجأر إلى الله بكلمة طيبة ، تتغير الدنيا من حولنا ، يتغير الكون من حولنا باستجابة لأمر الله بمسارعة لتنفيذ أمر الله ، انظروا في شأن أنس بن النضر ـ رضوان الله عليه ـ وهذا شأن الصالحين فيما مضى ، وإلا فدخلنا في مرحلة تبلد ، أقول بلادة شعور مزريه ، لابد من علاجها ،

نتكلم مثلاً عن التبرع للفلسطينين ، عن مناصرة قضايا المسلمين ، ما تسمع إلا إرجافًا ، ما تسمع إلا تخذيلاً ، ما تسمع إلا كلمات من شأنها أن تثبط العزائم إن وُجِدَت ، ولا أثر لها .

هل هذه القروش ستصل إلى فلسطين أم أنها ستتوه وتضيع في الطريق ؟! ، تقول : سبحان الله ، نعوذ بالله من الخذلان ما هممنا بطاعة ، إلا وكأن الوساوس الشيطانية والحواجز تحول وتعوق ، محتاجين لمراجعة النفس ، أنس بن النضر - رضوان الله عليه - وكأنه تحرق شوقًا لما تخلف عن غزوة بدر ، وكان هذا هو شأنهم ؛ عندهم حب لدين الله ، وللبذل في سبيل الله ، قال : لأن أشهدني الله غزوة أخرى قتالاً للمشركين ليرَيَن ما أصنع ، كان هذا هو شأنه وحاله - رضوان الله عليه - هذا هو حال الصالحين فيما مضى ، أين هذا الحال الآن ؟! .

هو تبلد والواحد يواجه المصائب هنا وهناك بمشاهدة للمباراة بحال هو أشبه بحال الجاهلية الأولى ، كانوا يقولون : اليوم خمرٌ وغداً أمر ، ونحن حالنا ينطق ويقول : ساعة لربك وساعة لنفسك ، نصلي ونصوم نعم ، نطلق اللحى ، ولربما كان منا تلاوة لكتاب الله ، ثم في ساعة أخرى وكأننا لا نمت للإسلام بِصلة « **من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم** » (١) .

تجـــارات رابحـــة :

نحن نحتاج إلى أن نرتقي لمستوى إسلامنا ، لمستوى ديننا ، كان هذا هو شأن الصالحين ؛ دخل أنس بن النضر - رضوان الله عليه - يوم أُحد ، فسمع أن

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الصغير والأوسط ، وهو حديث ضعيف ، وكذا الهيثمي بجمع الزوائد ، وضعفه الألباني - رحمه الله - .

رسول الله ﷺ قد مات قال : إن كان قد مات فعلام الحياة بعده ؟!! ، قوموا فموتوا على مثل ما مات عليه ، وتبرأ إلى الله مما فعله المشركون وأعتذر إليه بما جاء به إخوانه ، وقال : واه لريح الجنة ، إني لأحد ريح الجنة من دون أحد ، فقاتل حتى قُتلَ ، وما عرفته إلا أُخته من طرف بنانه ، وفيه وفي أمثاله نزل قوله تعالى : ﴿ **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً** (٢٣) ﴾ [الأحزاب : ٢٣] .

كانوا رجال ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ .

مَلَكنَا هَـذه الدُّنيـا قُـرُونًـا ... وسـادَهَـا جُـدودٌ خالـدونَ
وسطَّـرن صَحَائـفَ من ضيـاءٍ ... فمـا نَسِيَ الزَمـانُ ولا نَسِينَـا

ثم لما رجعنا القهقرة ، نسينا ربنا ونسينا ديننا ، دخلنا في تيه له أسبابه الكثيرة والعديدة ، والخروج من هذا التيه يتطلب وقفات صدق ، وإن تَصْدُق الله يصدقك ، لابد من وقفة مع النفس ، نراجع فيها أسباب العلل ، الآفات التي طرأت علينا وعلى الدنيا من حولنا ، والتي أخَّرتنا إلى وراء وراء ، « **ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه** » [١] .

قالوا : إذا أردت أن تعرف مقامك ، فانظر أين أقامك ، والله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس، أطلع ربك إلى قلوب الخلق، فاختار الأنبياء والمرسلين ، واختار سيدهم على علم على العالمين ، والله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس ، كانت أم المؤمنين عائشة ـ رضوان الله عليها ـ تقول لرسول الله ﷺ : « ما لي أرى ربك يسارع في هواك » ، يدعوه سبحانه ، يدخل في المسألة ، تجد سرعة الإجابة ، هذا هو فضل ربك ، هذا هو فعله بأوليـاءه ،، هذا هو الشأن والحال

(١) مسلم والترمذي ، وهو جزء من حديث أبي هريرة .

حتى من سلك طريق صلاحٍ ، طريق الإيمان ، وإلا فانظر في شأن الصالحين فيما مضى ، كان عندهم سرعة استجابة ؛ أبو الدحداح ـ رضوان الله عليه ـ عندما يسمع ﴿ **مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا** ﴾ [البقرة : ٢٤٥] .

يسارع إلى بستان له فيه ستمائة نخلة ، يتصدق به، يفرضه لربه سبحانه وتعالى، ثم يعود لامرأته يحكي لها ما صنع ، فتقول : بشَّرك الله بخير ، وتعمد بدورها إلى أولادها تخرج ما في أكمامهم وما في جيوبهم من تمر ، لأن البستان قد صار لله ، تجارة رابحة تاجروها مع الله جل وعلا .

سعد بن خزيمة ـ رضوان الله عليه ـ يأتيه أبوه يوم أُحد يقول : اجلس مع نساءك وأنا أكفيك الخروج ، يقول : لولا كان غير الجنة لأثرتك به ، إني أريد أن أرمى فيها ها هنا ، فما جاوز السهم الموضع الذي حدده ، هل كانت أبواب السماء مفتوحة لهؤلاء الأفاضل ـ رضوان الله عليهم ـ ؟ .

الواحد منهم يتكلم بالكلمة فتجد سرعة الاستجابة ؛ تقول : سبحان الله وهل أبواب السماء مغلقة دوننا ؟ ، ما هو السبب ؟ ، لابد من تفتيشٍ ، لابد من بحثٍ ، لابد من الرجوع للنفس باللائمة ، لابد وإلا فكل مقدمة لها نتيجة ، بل العبد يعاقب بنقيض قصده لو اتهمنا أنفسنا بعدم سلامة القصد ، بعدم سلامة النية كمسألة مبدئية ، لا نغالي أبداً في ذلك ، هي تهمة في موطنها ، تهمة في موضعها ، لماذا حيل بيننا وبين الخيرات والبركات ؟! ، ولماذا وفق من وفق ؟ .

حتى قال ﷺ : « **لا تزال طائفة من أُمَّتي ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خزلهم أو خالفهم ، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك** » [1].

وأن تحيا حياة التقسيم والتبديل والتغيير ، أنت قد قسمت الأشياء في

---

(١) سبق تخريجه .

حسك ، فالعلم في وادٍ والعمل في وادٍ آخر ، البعض منا عنده ثقافة إسلامية لا تمت للعمل بصلة وكأنه تثقف وتعلم ، حشو أدمغة ، أين العمل بدين الله ؟! ، أين الصدق مع الله تبارك وتعالى ؟! .

وإلا فهذا الكذب شبيه بكذب بني إسرائيل ، تعلموا الكثير والكثير ، ثم لما قيل لهم : ﴿ **ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا** ﴾ [البقرة : ٥٨] ، غيّروا وبدّلوا ، قالوا : حنطة ، أو قالوا : حبة في شعرة ، قالوا : ﴿ **إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ** ﴾ [المائدة : ٢٤] .

كأن هذا هو شأنهم وسوء أدبهم ، كيف يتقدمون ، لابد أن يدخلوا تيه ، محتاجين لوقفة صدق مع النفس ، وإلا فانظر لقول ربك - تبارك وتعالى - عن المنافقين يوم تبوك : ﴿ **وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦)** ﴾ [التوبة : ٤٦] .

تقول : سبحانه الله ، انظر إلى اطلاع ربك هو الحكم العدل سبحانه رقيب ، لا تخفى عليه خافية ﴿ **وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦)** ﴾ [التوبة : ٤٦] .

الجزاء من جنس العمل ، اعمل ماشئت كما تدين تُدان ، انظر في قصة أصحاب الجنة ، بيَّتوا نية الشر والسوء ، لم تكن القصود خالصة لوجه الله ، لم تكن القلوب معلقة بالله - تبارك وتعالى - ﴿ **فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (٢٣) أَن لاَّ يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ (٢٨) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩)** ﴾ [القلم : ٢٥-٢٩] .

كان هذا هو شأنهم ، كان هذا هو حالهم ، لما بيَّتوا نية الشر والسوء ،

خرجوا إلى البستان ، وجدوه ممحلاً تقول : نعوذ بالله من الخذلان ، ماذا لو بيَّتوا نية طيبة ؟ ، ولربما حتى لن ينفقوا شيئًا من جيوبهم ،كان سيجبر بها الكسر، سيرحم بها الضعف، القصود ابتداءً محتاجة لمراجعة ، محتاجين لأن نصدق مع الله ، هذا الذي يفرق لك بين حال وبين حال . . . العملة المغشوشة لا تروج على الله ، وحتى ولو قلت : نحن لسنا بعملة مغشوشة ، نحن عملة ذهبية ، لكن علاها التراب وتراكم عليها ، نحن نحتاج إلى إزاحة هذا التراب حتى تصفوا لنا هذه العملة الذهبية ، حتى يصطلح كل فريقٍ على حقه ، حتى نتقدم ، حتى نزيل هذه المذلة ، هذه المعرَّة عن هذه الأُمَّة ، يتسلط عليها الأعداء على مثل هذا النحو وكأنها لا قيمة لها ، لا شأن لها، يكون هذا هو حال أُمَّة ؛خير أُمَّة أُخرجت للناس .

الرجـــال مواقـــف :

أين من يتمثل بموقف أبي بكر الصديق ،والفارق كبير وعظيم ، يوم الهجرة ـ رضوان الله عليه ـ قال لرسول الله ﷺ : « إن أهلك أهلك وحدي ، وإن تهلك تهلك تهلك معك الدعوة » ، موقف يختلف تمامًا عن موقف بني إسرائيل في سوء أدبهم لما قالوا : ﴿ **فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ** ﴾ [المائدة : ٢٤] ، أين الأدب مع الله ومع رسول الله ﷺ ، وحتى وإن كان استدفاعًا لهلكة ، أي هلكة أن يقدموا نبي الله موسى قربانًا ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وهو الذي دعاهم ودلهم على طريق الله ـ تبارك وتعالى ـ ، على العكس والنقيض كان موقف أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه ؛ يقول: إن أهلك أهلك وحدي ، وإن تهلك تهلك معك الدعوة » ، يتذكر الرصد فينطلق أمام النبي ﷺ ، يتذكر الطلب فيتحول خلفه ،

تارة عن يمينه وتارة عن شماله ، كل ذلك حتى يكون فداءً لرسول الله ﷺ ، كان هذا هو شأن الصالحين ، أما اليهود فقد دخلوا التيه أربعين سنة ، قال : ﴿ **فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ** ﴿٢٦﴾ ﴾ .

[المائدة : ٢٦] .

وصفوا بالفسق ووصفوا بالظلم ، فقال : ﴿ **إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي** ﴾ [المائدة : ٢٥] ، والإنسان لا يؤتى إلا من قِبَلَ نفسه ، وكلكم بحاجة لوقفة صدقٍ مع الله ـ تبارك وتعالى ـ بمعنى : لا يصح بأن نطرح القضايا على فلان وعلى فلان ، لا أطرحها على نفسك أنت ، أنت سيوقف بك بين يدي الله ، ستُسأل وتحاسب ، قدِّم للسؤال جوابًا ، وقفة صدقٍ ، عسى يجبر بك الله الكسر في هذه الأُمَّة ، عساه يرحم بك ضعفها .

■ ما الذي يمنع أن تدعوا ربك فيجيب دعوتك أنت ؟ .

■ ما الذي تستبعده من ذلك ، هذا شأن الصالحين فيما مضى، مواقف إيمانية وقفوها ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ واحد لربما وقف هذه الوقفة جبر به كسر الجميع، رحم به ضعف الجميع ، فأين هذا الرجل الذي يبدأ بنفسه، فينهي هذه النفس عن غيِّها ؟! .

يتربى تربية إيمانية ، ونحن لا نحجِّر واسعًا ، لا نغلق أبواب الرحمة وإلا فالخيرات والبركات قد تأتي على يد الأبناء كما تحققت على يد الأبناء ، أبناء بني إسرائيل ؛ ما فتحت الأرض المقدسة على الأباء ، فتحت على أبنائهم ، وكانت عدة النصر يومئذٍ بسيطة وسهلة .

وكل أمر تجده على هذا النحو ومن هذا المخرج ، لا تعقيد فيه ، لا فزلكات ولا فلسفات، ما كادوا يدخلون الباب إلا وانتصروا على العماليق ، كانوا ضخام

الأجساد، ضعاف القلوب .

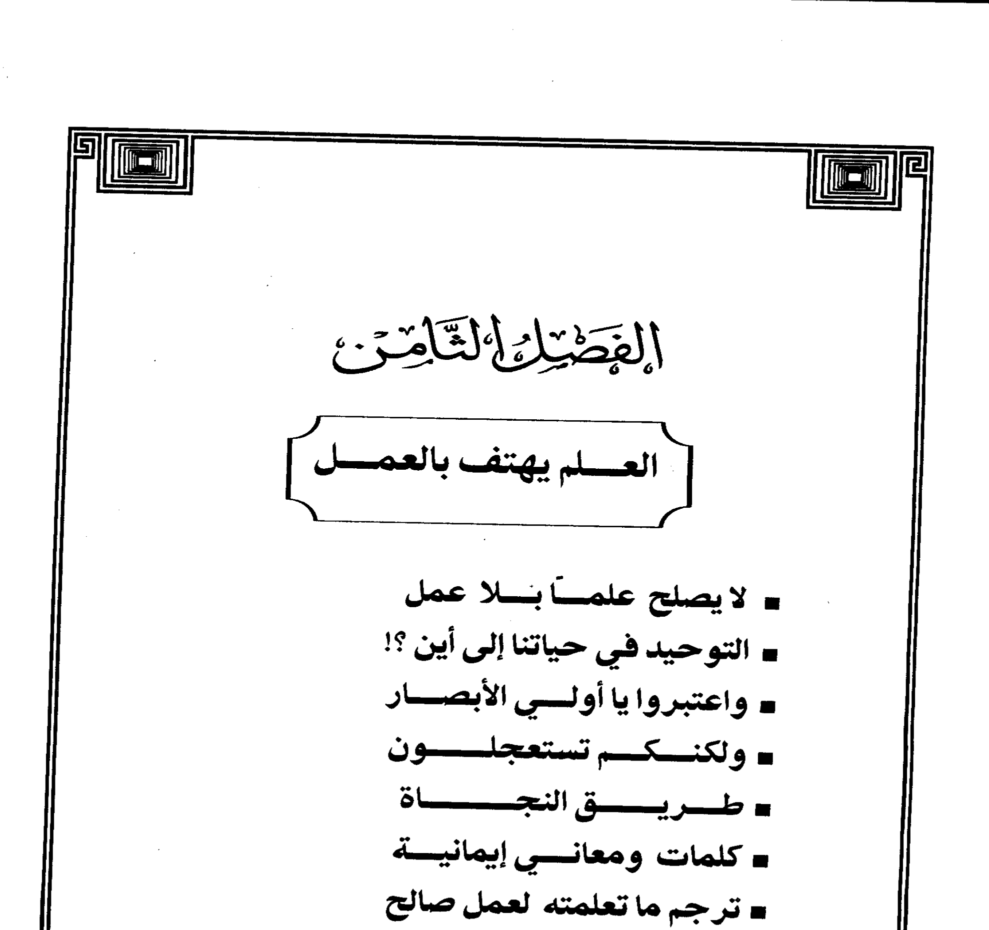
محتاجين لتوكل على الله عسى ربا يجبر كسرنا ويرحم ضعفنا ، ينظر إلى قلوبنا فيجد منها صلاحًا وإصلاحًا ، تجأر إلى ربها - تبارك وتعالى - تستشعر ضعفها وعجزها وفقرها بين يدي ربها ، ﴿ **ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ [المائدة : ٢٣] .

كانت هذه هي عدة النصر ، لم يكن فيها أسلحة فتاكة ، ولا خطط حربية استراتيجية ، ولا عقلية جهنمية ، ما كان فيها إلا التوكل على الله ، وهم الأبناء ؛ ما كادوا يدخلون الباب إلا وانتصروا على العماليق .

هل بمثل ذلك ننتصر على عدو الله وعدونا ؟ ، أي والله حتى وإن كنا مستضعفين ﴿ **وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا** ﴾ [آل عمران : ١٢٠] .

لا يضركم كيد العدو وإن كان ذا تسليط ، إن تعلقت القلوب بربها هو الذي يجبر الكسر ويرحم الضعف،وهو الذي يقيل العثرات ويكشف الكربات ، هو الذي يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء ، ويجعلكم خلفاء الأرض .





الفصل الثامن

العلم يهتف بالعمل

- لا يصلح علماً بلا عمل
- التوحيد في حياتنا إلى أين ؟!
- واعتبروا يا أولي الأبصار
- ولكنكم تستعجلون
- طريق النجاة
- كلمات ومعاني إيمانية
- ترجم ما تعلمته لعمل صالح

الفصل الثامن

العلم يهتف بالعمل

لا يصح علماً بلا عمل :

لابد من تساؤل: هل نحن في مرحلة التيه ؟، لماذا دخلنا ؟ ، وما السبيل للخروج من هذه المرحلة ؟، ولماذا طالت إذا كنا قد دخلناها منذ سنوات طوال؟ ، ما هو السبب في الدخول في هذا التيه ؟ ، وهل السُنن تعرف المحاباة ؟ ،تعرف المجاملات؟ ، ولماذا لم نقرأ السُنن الشرعية والسُنن الكونية قراءة واعية إذا كنا صادقين؟، إذا كنا ننشد فعلاً وحقًا الخروج من هذه المرحلة ؟، لماذا يكون شأننا كالعير بالرمضاء يقتله الظمأ والماء فوق ظهوره محمول ؟! ،ويكون شأننا كشأن المريض، يرى دواءه ويعلم أنه الدواء ثم لا يتعاطاه ،فهل مثل هذا يرتجى له شفاء ؟!.

لابد من أخذ بالسُنن ، لابد من التعرف على الشرع وعلى الواقع من حيث هو واقع ، وإلا فسندخل في تيه ولا نكاد نخرج منه ، تيه يستمر بنا ليس فقط أربعين سنة كهذه التي نرثى بها على بني إسرائيل ، ونحكي ونتحاكى أنهم دخلوا في التيه ﴿ **يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ** ﴾ [المائدة: ٢٦] ، فلا تدخل أنت في تيه يستمر بك ربعمائة سنة ، ولا تلومن حينئذ إلا نفسك ، والمسألة حينها تدخل في هذا التيه ، قد لا يكون السبب جهالة منك بسبب الخروج ، المصيبة الأكبر وأعظم ، أنك قد تعرفت على السبيل ، على طريق الخروج ، ولكن لا تأخذ بالسبب ، وإلا فقد حكى لنا سبحانه وتعالى

﴿ قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٣) ﴾ [المائدة :٢٣] ، فهذا هو السبيل، هذا هو الطريق ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

هذا هو أمر الله جل وعلا ، لا يضيع عبده ، لا يضيع أولياءه ، وضح لهم نبيهم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ طبيعة الطريق ، وأنهم إن دخلوا على العماليق الباب فسينتصرون عليهم ، وأمرهم بالتوكل على الله ، حسبة بسيطة جداً لا تقبل الفلسفات ولا الفزلكات ، محتاجة لعمل وتطبيق ، هذا الذي تخلف ، والمشاكل والمصائب قد لا تكمن في جهالة بالأمر من حيث هو هو ، قد نعلم ونعلم الكثير والكثير يكون شأننا كشأن المثقفين ؛ عندنا حصيلة علمية ، عندنا ثقافة شرعية وتخلُف معها العمل ، فتكون المصيبة ، هذا يحتج بكِبر سنٍ ، والثاني يحتج بخبرة ، والثالث يحتج بمكانة . . . والعاشر يحتج بعلم وكلهم إلى وراء وراء ، لماذا ؟ ، لأنهم لم يصدقوا في هذا العلم الذي تعلموه ، لأنهم قدَّموا الآراء ، قدموا الخبرات على شرع الله ـ جل وعلا ـ ، فكان بالحتم واللزوم ، لابد وأن يرجعوا إلى وراء وراء ، لابد أن يتخلفوا .

هل كان شأن بنو إسرائيل يومئذٍ كشأن المرجئة عندنا ؟ ، هذه الطائفة ، هذه الفرقة النارية التي أخَّرت العمل ، وذكروا أن الإيمان هو المعرفة ، أو هو العلم وأخَّروا العمل على مثل هذا النحو، لا يصلحون لإقامة خلافة على منهاج النبوة، هذه الخلافة إنما تقام بعلمٍ نافعٍ وبعملٍ صالح ؛ أن نكون على مثل ما كان عليه النَّبيّ ﷺ والصحابة الكرام ﷺ .

والإيمان إقرارٌ بالجنان ، وعملٌ بالأركان ، وقولٌ باللسان ، ما يتخلف فيه العلم عن العمل ، والعلم يهتف بالعمل ، فإن أجابه وإلا ارتحل ، فهل كانت

فيهم لوثة ؟ ، المرجئة خرجوا بلوثة بنو إسرائيل يومئذٍ عندهم علم وافر بدليل أن العلماء قالوا : من فسد من علماءنا ففيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى ، وأنت تتعوذ بالله - جل وعلا - على الأقل خمس مرات كل يوم تقول : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ ، وهم اليهود ﴿ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ وهم النَّصارى ، هؤلاء عندهم علم لا عمل فيه ، قالوا لنبي الله موسى : ﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ۝٢٤ ﴾ [المائدة : ٢٤] ، تكسير للأمر ، تخلف للعمل ، عندهم علم ، علموا السبيل والطريق ولكن لم يؤخذوا به ، لم يرفعوا بذلك رأسًا ، وصفهم ربنا تبارك وتعالى بالعلم ، وضرب بهم مثل السوء مع ذلك ، قال : ﴿ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ [الجمعة : ٥] ، هذا يثقله حمل الكتب على ظهره ، هو تعلم الكثير والكثير ، ولذلك لما رأى بعض العلماء إخوانًا له يجمعون العلم ولا يعملون به ، قال له : يا هذا ، إن فنيت عمرك في طلب السلاح فمتى تقاتل به ؟! .

هذا السلاح يثقلك ، يتعبك ، يدمرك إذا أفنيت عمرك في طلب السلاح ، فمتى تقاتل به ؟! ، فهؤلاء اليهود كان عندهم علم ولكن لا عمل فيه ، هل كانوا قريبي الشبه بهذا الفرعون ، هذا الفرعون هو الآخر كان عنده معرفة ، حتى وإن أظهر الجحد ، ولذلك قال سبحانه : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل : ١٤] .

قال وأدعي الربوبية والألوهية مع الله : ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ﴾ [الزخرف : ٥١] .

وقال : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ۝٢٤ ﴾ [النازعات : ٢٤] .

وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص : ٣٨] .

كان يظهر الجحد ؛ قال : ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴾ [طه : ٤٩] .

وقال سبحانه : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل : ١٤] .

ولذلك قال له نبي الله موسى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ والحق ما جرى على لسانه ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (١٠٢) ﴾ [الإسراء : ١٠٢] .

فجحدوا في ظاهر الأمر وكان عنده معرفة ، كان عنده علم ، العلم وحده لا يكفي ، ولا المعرفة وحدها تكفي ، كمعرفة المريض بدواءه ، ثم هو لا يتعاطاه ، كيف يتحقق الشفاء ؟ ، كيف نخرج من التيه ونحن أيضًا عندنا علم ؟ ، تعلمنا الكثير والكثير والبعض يحلو له أن يقول :علمٌ نظري ،كلمة دارجة على الألسنة، وثقوا تمامًا أن هذا العلم الذي تعلمتموه والذي صار حبيسًا للسطور إن لم يترجم إلى عمل، إن لم يترجم إلى واقع ، ثق تمامًا وكأنك لم تعرف شيئًا ، بل هذا الذي تعلمته صار حجة لله ـ تبارك وتعالى ـ عليك ، ولا تلومن إلا نفسك ، وإلا فهي السُنن لا تعرف المحاباة ، لا تعرف المجاملات ، وكأني ببني إسرائيل عندما نظروا لهؤلاء الأبناء ، قالوا ما قاله المنافقون عن صحابة رسول الله ﷺ ، قالوا : ﴿ غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ ﴾ [الأنفال : ٤٩] .

التوحيد في حياتنا إلى أين ؟! :

والبعض عنده احتقار ، عنده استهانة وازدراء بالبعض ، لصغر سنه ، أو لغير ذلك من المعاني ، يكاد يحجّر واسعًا ، ولا سبيل لذلك ، وإلا فالسُنن لا تعرف المحاباة ،لا تعرف المجاملات، رحمة ربك ـ جل وعلا ـ أوسع من كل تخيل ، أوسع

من كل تصور ، وغباء يستحكم على أدمغة البعض ، ولعلكم سمعتم من كانوا يتباهوا يومًا بأنهم أبناء الجبارين ، بأسًا وسُحقًا للجبارين ولأبناءهم ، الذين يسيرون على منوالهم ولا يرفعون رأسًا بدين الله - تبارك وتعالى - وإلا فالخير كل الخير في اتباع الوحي المنزل، في رفع الرأس بدين الله - تبارك وتعالى - ﴿ **لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ** (٣٧) ﴾ [المدثر : ٣٧] .

كانت الوصفة : ﴿ **وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ [المائدة : ٢٣] ، بهذا تنتصر على عدو الله وعدوك بشيء بسيط كهذا ، بهذا المعنى الإيماني ، أنت تدخل تيهًا ، تدخل تيهًا بعدم إيمانًا ، وتخرج منه بإسلام الوجه لله ، وصفة بسيطة ما تحتمل الفلسفات ولا التعقيدات ولا التنظيرات ، لسنا بحاجة لمنظر وللعالم البارع حتى يصفُوا لنا كيفية الخروج .

معنى الإيمان نتحقق به ستتحقق البصيرة ننتصر على عدو الله وعدونا ، نتعرف على الطريق ، ثم نترجمه إلى واقع ، إلى عمل ، مصيبتنا أننا قرأنا الكثير والكثير في معاني التوحيد ، هذا يدرس وهذا يدرس معاني العقيدة ، أين هي في حياتنا ؟ ، أين تعلق القلوب بخالق الأرض والسماوات ؟ .

متى صار التوحيد واقعًا عمليًا ، واقعًا سلوكيًا في حياتنا وفي حياة الأُمَّة من حولنا ؟ ، نتباعد عن دين الله ، فيظلم حياة الأفراد والدول والجماعات حتمًا لا محالة، كل مقدمة لها نتيجة وكل عقيدة لها تأثير ، وبالتالي لو وجدت نفسك والأمة من حولك تدور حول نفسها ليل نهار ، في هذه السنة ، وفي التي قبلها والتي بعدها ، إن كان في العمر بقية ، لا تتعجبن لذلك ، نظل هكذا ندور حولنا أنفسنا ، كما دارت بنو إسرائيل في عدة فراسخ فيهم العقلاء ، وأنت لربما تطاولت وادعيت ذكاءًا وفطنة ، وبنو إسرائيل في الزعم أكبر وأعمق وأعظم ،

يزعمون النباهة والذكاء والفطنة ، يسوسون دول الدنيا ، يزعمونهم بمثابة البهائم التي يركبونها لبلوغ الأهداف ، هذا هو شأنهم ورغم ذلك دخلوا في التيه ﴿ يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ ﴾ [المائدة : ٢٦] ، ما السبب في ذلك ؟، قالوا لنبي الله موسى عليه السلام : ﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ [المائدة : ٢٤] .

ضربت عليهم المذلة والمهانة ، وهذا شأن كل من حاد عن شرع الله ، عندك نعمة كان لابد أن ترفع بها رأسًا ، لم تؤدي شكرها ، فثق تمامًا أنك ستعود إلى وراء وراء ، ولذلك قال سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) ﴾ .

[الأعراف : ١٥٢] .

عندما تصرف العبادة لغير الله ، عندما يشنع البشر مع الله - تبارك وتعالى - عندما يتغير مفهوم الولاء والبراء ؛ عندما تحب أعداء الإسلام والمسلمين ، عندما يُمتهن المسلم لإسلامه ، وتنتهك شعائر الإسلام والدين ، ما الذي تنتظره ؟ ، إلا المذلة وإلا المهانة هي الدروس ، لم نرفع بذلك رأسًا ، ولذلك قال الإمام مالك - رحمة الله عليه - : ما من مبتدع إلا وعلى رأسه الذلة ، حتمًا لا محالة ، وعلى قدر بدعته ، وعلى قدر انحرافه عن منهج الله تعالى ، على قدر المذلة والمهانة ، قالوا لنبي الله موسى : ﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ .

[المائدة : ٢٤] .

قومٌ عندهم من سوء الأدب ، قومٌ عندهم من الجلافة والغلظة ما استحقوا أن يدخلوا به في هذا التيه ، عبدوا العجل من دون الله ، وضُربت عليهم الذلة والمهانة ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) ﴾ [الأعراف : ١٥٢] .

واعتبـــروا يا أولي الأبصـــار :

هل ساق لنا ربنا هذا القصص لكي نمصمص الشفاة ، لكي نتسلى به ؟! ، كي تأخذ الدرس والعظة والعبرة ، لم تأخذ درسًا والقصص محبوبة ، النفوس تشغف بها ، تصل إلى القلوب من أقصر طريق تقرأ القصة وتتلذذ ، خذ الدرس والعظة والعبرة ، كن صادقًا وإلا فأنت نعم تمت للتوحيد بصلة ، أنت من أتباع رسول الله ﷺ ، ولكن عندما يصبح التوحيد عبارة عن ثقافة ، عندما يصبح الإيمان عبارة عن قراءة واطلاع لا واقع له ولا رصيد أنت تستذل ، أنت تدخل في تيه لا تخرج منه حتى تصطلح مع الله ، حتى تصدق مع الله - جل وعلا - أن تصدق الله يصدقك ، ولذلك كانت الوصفة بسيطة وسهلة ﴿**وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ [المائدة : ٢٣] .

من منا لم يقرأ عن التوكل، من منا لم يسمع به؟!، من منا لم يعطي درسًا ، إن لم يكن الآن فمنذ عشرين سنة ، تكلمنا وتعلمنا الكثير ، ولكن أين هو في حياتنا، أين هو في حياة الناس ؟ ، في حياة الدول والأفراد والجماعات ؟ .

متى تعلقت القلوب بربها في جلب النفع ودفع الضر ؟! ، متى نفضت يدك من الخلق ، كلهم ضعيف ، كلهم فقير ، كلهم ميت ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥)**﴾ [فاطر : ١٥] .

متى تعلقت قلوبنا بربنا في جلب النفع ودفع الضر،قل: لوثة مادية جرت منا ومن الخلق مجرى الدم من العروق ، حسابات تؤخر والبعض يدعي بها الذكاء والفطنة، يدعي بها النظرات الواقعية،يقول لك:كن واقعيًا،كن مؤمنًا، أسلم الأمر لله، فوض الأمر إليه ، نحن أولى بك منك ، من الذي توكل عليه فأضاعه؟!! .

لما تنظر أنت في السُنن الشرعية والسُنن الكونية ستجد الكثير والكثير من معاني الإيمان ، والله معنى واحد وأقسم على ذلك بالله - وأرجوا أن أتحقق بهذا المعنى - إن تحقق فينا لدانت لنا الدنيا بأسرها غربًا وشرقًا ، ولما كنا مستذلين على مثل هذا النحو ، نستذل من الأراذل ، نجر من مذلة إلى مذلة ، من مهانة إلى مهانة ، لو توكلنا على الله وأحسنّا المسير إليه ، انظر في قول النَّبي ﷺ : « **إذا ما خرج العبد من داره فقال : بسم الله توكلت على الله ،لا حول ولا قوة إلا بالله ، تنحى عنه الشيطان ، وقال الآخر : كيف برجل هدىَ وكفىَ ووقىَ** » (١) ، لا سبيل لتسلط الشيطان عليك : ﴿ **إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ﴿٩٩﴾ ﴾ [النحل : ٩٩] .

هذا هو الشأن والحال ، لا سبيل أبدًا لأن يتسلط أعداء الإسلام والمسلمين ، لا سبيل أبدًا لأن يتسلط عليك الشياطين ، إن كان عندك توكل على الله - تبارك وتعالى - إن تحققت أنت هذا المعنى الإيماني ، انظر في شأن هذا الغلام وكانت أُمّه تحمله ، مر على جارية تؤذى وتُعذب ، قالوا لها : زنيتي ، وهي تقول : حسبي الله ونِعْمَ الوكيل، فقالت المرأة - وكانت ترضع صغيرها - : اللهم لا تجعل ابني مثلها ، فترك الصغير الثدي وقال : اللهم اجعلني مثلها ، هذه امرأة أُتهمت ظلمًا وعدوانًا وهي تستجير بالله ، تستغيث بالواحد القهار ، تقول : حسبي الله ونِعْمَ الوكيل ، فاستنطق الرب الغلام وقال : اللهم اجعلني مثلها ، «**لو توكلتم على الله حق توكله ، لرزقكم كما يرزق الطير ؛ تغدوا خماصًا وتروح بطانًا** » (٢) ، هذه كلمة طيبة ، قالها نبي الله إبراهيم وهو في النار ، فكانت بردًا وسلامًا عليه ،

---

(١) تفرد به ابن ماجة ، وضعفه الألباني وكذا البوصيري .

(٢) الترمذي وابن ماجة وأحمد والسيوطي الجامع الصغير ، وصححه الألباني - رحمه الله - .

قال : حسبي الله ونِعْمَ الوكيل ، ما عول على حولٍ ولا على طولٍ ، ما عول على خطة ولا على مؤامرة ، ما عول على عضلات فتاكة ، بل قال في مواجهة ذلك كله : حسبي الله ونِعْمَ الوكيل ، فكانت النار بردًا وسلامًا عليه .

وهل الأعداء أشد من هذه النار ، هي الكلمة الطيبة التي قالها صحابة النّبيّ ﷺ يوم حمراء الأسد ﴿ **الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤)** ﴾ .

[آل عمران : ١٧٣-١٧٤] .

رضوان الله عليهم أجمعين ، نطقت الألسنة وتواطأت القلوب مع الجوارح ، كان هذا هو شأنهم ، وأنت في أحسن حال تردد مقالات بلسانك ، لا واقع لها ، لا رصيد لها ، أنت في أحسن أحوالك كالمجرب لدينك ، كالمجرب لربك . . . هكذا الشأن والحال ، والسيف ليس بحده فقط وإنما بضاربه ، ولو كانت اليد مشلولة لم يحدث السيف نكاية في العدو حتى وإن كان حادًا ، لابد من يد تثق في الله ، لابد من قلوب تتعلق بربها ، تثق بوعده سبحانه وتعالى .

أُم موسى - صلوات الله وسلامه عليه - قيل لها : ﴿ **فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧)** ﴾ [القصص : ٧] ، امتثلت لأمر الله متوكلة على الله ، علمت أن الله لا يضيع أولياءه ، لا يضيع أهله ،وإلا فمن أصدق من الله قيلاً، وإن لم تثق القلوب في ربها وهو الغني الحميد ، أرحم بالعبد من الأم بولدها ، ففي من ستثق ؟! ، تثق بالحول والطول ، في القرش والدرهم والدينار ، في خلق كلهم ضعف وفقر وعورة ، كان لابد من ثقة فيما عند الله ، أمرك ؛ لابد أن تستجيب وتقول : ﴿ **سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا**

وإليك المصير ﴾ [البقرة:٢٨٥] ، ليست استجابة باللسان فحسب ، ليست في الظاهر فحسب ، بل في الباطن أيضًا ، لابد من انقياد القلوب ، هو الذي بيده النفع والضر سبحانه ، وأنت متى توكلت على ربك حُزت الخيرات والبركات .

ولكنكم تستعجلـــون :

كان نبي الله نوح عليه السلام يصنع السفينة على اليابسة ﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) ﴾

[هود : ٣٨] .

صنع السفينة على اليابسة ، هو يعلم أن الله هو مرسيها ومجريها ، كان يعلم ذلك رغم أنه يصنعها على اليابسة ، كَفَرَ به قومه ، وما آمن معه إلا قليل ، وعلم أن الفرج آتٍ لا ريب في ذلك ، هذا وعد القدير ـ جل في علاه ـ بل أنت إذا ما تأملت دعوات الأنبياء والمرسلين ، وجدت التوكل في تمامه وكماله ، يصدعون بكلمة الحق ، الواحد منهم يخرج على الدنيا بأسرها يخالف عوائدها ، يخالف عقائدها ، يخالف الدنيا بأسرها ورغم ذلك يقول لهم : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف : ٦٥] ، قد يتكالبون عليه ويؤذونه ، ورغم ذلك إذا ما استفاق من أذاه قال لهم : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ .

يأتي خباب بن الأرت رضي الله عنه لرسول الله ﷺ ، وكان يؤذى ، يقول : ألا تستنصر لنا ؟ ، ألا تدعوا لنا ؟، فيقول له النَّبيّ ﷺ : «**كان من منكم من قبل ، كان يؤتى بالرجل ويُحفر له في الأرض ، ويُؤتى بالمنشار فيوضع فوق رأسه ، ما يصرفه ذلك عن دينه أبدًا ، وكان يمشط بأمشاط الحديد ما بين لحمله وعظمه ، ما يصرفه ذك عن دينه أبدًا ، والله ليتمَّن الله هذا الأمر ،حتى يسير**

الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله ، والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون » (١) .

انظروا للثقة ولليقين ، انظروا للتسليم والتفويض فيما عند الله ـ جل وعلا ـ ، « **والله ليتمَّن الله هذا الأمر** » ، هو ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ، يؤذى وكل أصحابه يؤذون ، ورغم ذلك ثقة فيما عند الله ، وأنا لو تكلم معك الآن وقلت لك : المستقبل للإسلام ، سنسود الدنيا بأسرها ، سنفتح بيت المقدس ، إن صدقتني بالقول ، كذبتني بالفعل ، أو القلب كأنه يستهزأ ، أو سيُتهم القائل بأنه مخبول ومجنونٌ ، لا يقف على أرضية الواقع ، يتكلم بكلمات حماسية ، ولذلك فالعبد لا يؤتى إلا من قِبَلِ نفسه بسبب عدم توكله على الله ، وإلا فهؤلاء الأبناء هم الذين فتحت عليهم الأرض المقدسة ، هل فتحت عليهم بعضلات فتاكة ؟! ، بسلاح تكنولوچي ؟! .

ما فتحت عليهم الأرض المقدسة إلا بتوكلٍ على الله ، هذه هي الحسبة ، ما كادوا يدخلون على العماليق ،على الجبابرة الباب إلا وانتصروا عليهم ، وكان هذا هو الوعد الذي قاله لهم نبيه الله موسى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ﴿ **قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٣)** ﴾ [المائدة : ٢٣] .

نحن نحتاج إلى أن نوثق صلتنا بربنا تعالى ، أن نصدق مع الله ، « **إن تصدق الله يصدقك** » (٢)، **فإذا ما وجدت خلاف ذلك فلا ملامة إلا على النفس** ،اتهم نفسك ، لا تتهم شرع ربك ـ تبارك وتعالى ـ ، إن دخلت تيهًا ولم تخرج منه فالسبب هو هذه النفس ، لم تثق في وعد ربها ، لم تأخذ العظة ، لم تأخذ

---

(١) سبق تخريجه .
(٢) انفرد به النسائي ، وصححه الألباني ـ رحمه الله ـ .

العبرة،ستظل تدور حول نفسك في أمتار معدودات ، « وتغرق في شبر ماء » كما يعبر البعض، لا بأس بذلك كله﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت:٤٦] .

طريـــق النجـــاة :

كان الواجب علينا أن نرفع به رأسًا ، أن نأخذ ما جاء في كتاب الله وفي سُنَّة رسول الله ﷺ ، نسعد ، نأكل من فوق رؤسنا ومن تحت أرجلنا ، تدين لنا الدنيا بأسرها ، يتحقق لنا النصر والعز والتمكين ، متى صدقنا في الإمتثال لأمر الله تعالى﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ ﴾ [البقرة : ٦٣] ، بلا ذبذبة وبلا تردد ، وبلا تجريب ، وبلا ادعاءات للعلم وللثقافة ، محتاجين لأن نصدق مع الله ، معنى إيماني نتحقق به يغيِّر بنا سبحانه الأرض ، كما غيرها بسلفنا الصالح ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : ١١] .

- ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة : ٢٣] .
- ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾ [الزمر : ٣٦] .
- ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق : ٣] .
- ربنا تعالى يحب المتوكلين ، قال :﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ .

[آل عمران : ١٥٩] .

- فإن أعرضت أنت عن عدوك ، فقل :﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ .

[النساء : ٨١] .

- وإن أعرض الناس عنك فقل :﴿ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩) ﴾ [التوبة : ١٢٩] .

إن خفت المخالفات وإن خفت المضرة والأذى ، فتوكل على الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢) ﴾ [إبراهيم : ١٢] .

■ ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١) وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٢٢) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣) ﴾ [هود : ١٢١-١٢٣] .

هذا هو مربط الفرس ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ تكفي بإذن الله ، إن أحسنت المسير إلى الله ، إن توكلت على ربك ـ تبارك وتعالى ـ ولذلك قال نبي الله نوح ﴿ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ [يونس : ٧١] ، رغم الكثرة الكثيرة التي تقف في مواجهته تخالفه ، تعاديه ، فكان سلاحه الذي اعتصم به هو اللجؤ إلى الله ، التوكل على الله ﴿ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ ﴾

هذا هو الذي نفتقده كلنا ، قرأ عن التوكل وعلم عنه ، ولكن محتاجين لأن تتعلق القلوب بربها ،كان خالد بن الوليد ـ رضوان الله عليه ـ يقول لقادة الروم : والله لو كنتم في السماء لأوصلنا الله إليكم أو لأنزلكم إلينا ، أي ثقة هذه ، أي توكل هذا ، ما يرهبوا الروم ولا غير الروم ، بل حتى لو كانوا في السماء لأوصلنا إليهم أو لأنزلهم إلينا ، ننتقم منهم ، ننتصر منهم بإذن الله تعالى ، كيف انتصر الأنبياء والمرسلون بعدد أو عتاد ؟ .

أخذوا بالأسباب وأعظمها التوكل على خالق الأرض والسماوات ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ [آل عمران : ١٢٣] ، أما كان يوم اليرموك بعثوا لعمر بن الخطاب ، استحر فيهم واشتد فيهم القتل ، فبعثوا لعمر يسألونه المدد ، فقال : ألا أدلكم على من هو أعظم نصرًا وأعز جندًا ، إن نبيكم ـ صلوات الله

وسلامه عليه ـ قد نُصر يوم بدر في أقل من عدتكم ، فاستنصروه سبحانه .

كلمات ومعاني إيمانيـــة :

كلمات إيمانية لم يبعث لهم مدداً وإنما بيَّن لهم طبيعة الطريق ، قلوب تتعلق بربها ـ تبارك وتعالى ـ وإلا فهو الذي نصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده ، هو الذي ينصرك على قلة عتد وعتاد ، لو تعلقت القلوب بربها ـ تبارك وتعالى ـ في جلب النفع ودفع الضر، معاني إيمانية قد يتفطن لها عابد الصنم عندما أسلم، عندما أرادوا له دفع القروش ، قال : سبحان الله ، إني كنت أعبد صنم في البحر فلن يضيعني ، فكيف بعدما عرفته ، يعطونه شيئًا ، يقول لهم : سبحان الله ، دللتموني على طريقٍ لم تسلكوه ، هذا هو شأن عابد الصنم ، عندما يسلم وجه لله ، يعلم أن الله قدير ، يعلم أن الله ـ تبارك وتعالى ـ لا يكون في ملكه إلا ما يريد ، لا يضيع أولياءه ، لا يضيع عبده سبحانه ﴿ **وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ** ﴾ [الأنفال : ١٠] ، ﴿ **وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الروم : ٤٧] .

الغلام على حداثته على صغر سنه ، قلبه معلق بالله ، يقول له الرجل : أما تتخذ لك أبًا ،يقول: إن جُعت تطعمني؟، يقول له: نعم ، إن عريت تكسوني؟، يقول له: نعم ، قال: إن مرضت تشفيني، قال: هذا ليس إليَّ، قال : إن مت تُحييني ، قال : هذا ليس إلى أحد من الخلق ، قال : فخلني للذي خلقني فهو يهدين، والذي يُطعمني ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين ، والذي يُميتني ثم يُحييني ، والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين ، قال الرجل: آمنت بالله .

■ ﴿ **أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ** ﴾ [الزمر : ٣٦] .

■ ﴿ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر : ٣٨] .

حسبي الله ونعْمَ الوكيل ، لا تضار ، تسلم بإذن الله تعالى في عاجلك وآجلك ، حتى وإن احتمت من جولك المهالك من هنا ومن هناك ، ووثقت قلبك بالله ، تخرج سالمًا ، تخرج آمنًا بإذن الله ، يكون الفتح العظيم ، تنتصر وتفتح عليك الأرض المقدسة ، ما فتحت إلا على الأبناء لما استعانوا بالله ، لما صدقوا في إيمانهم، لما امتثلوا لوعد نبيهم ، لما توكلوا على الله، حسبة بسيطة ، لكن الحسابات البسيطة تاهت ، شددنا فشدد الله عينا،كان شأننا كشأن بنو إسرائيل، قيل لهم : اذبحوا بقرة ، لو أخذوا بقرة وأجزأتهم لانقضى الأمر بذلك ، ولكن تعنتوا وتشددوا ﴿ مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا ﴾ [البقرة : ٧٠] .

يقول ابن عباس ﭬ : « شددوا فشدد الله عليهم » ، الحياة مع الإيمان بسيطة ، لا تعقيد فيها ، تنحرف عن منهج الله تتعقد الدنيا وتكون الكلكعة التي تسمع عنها، وتحكيها بلسانك وتسمعها من غيرك ، ولا سبب لها إلا عدم الإيمان ، عدم العمل بطاعة الله - تبارك وتعالى - كل المعاني بسيطة ، تريد أن تتزوج أنت ، توكل على الله ، يكون شأنك كنبي الله موسى، وإلا فالبعض سيظل أربعين سنة وخمسين سنة يجهز الحجرة ، والحجرة لابد وأن تكون بهيئة كذا ، يجمع عشرة قروش للمهر ، وبعد جمعهم يجد أن العشرة قروش لا تكفي ، الأمر أيسر من ذلك بكثير .

لو تعلقت القلوب بربها ، لو قلت كما قال نبي الله موسى ﷺ : ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ﴾ .

[القصص : ٢٤-٢٥] .

بركات وخيرات تحدث عندما تتوكل على ربك ؛ نبي الله إبراهيم

ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ترك ولده الوحيد إسماعيل ، ترك هاجر في هذا المكان القفر ، توكلاً على الله ، وإيمانًا به ، واحتسابًا للأجر عنده ، ثقة في وعده سبحانه ، ما خاب ولا ضاع ، كان هو أُمَّة ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وانفجر نبع زمزم وكانت الآيات والبركات التي أحاطت بهاجر وبوليدها إسماعيل ﴿ **جَزَاءً وِفَاقًا** (٢٦) ﴾ [النبأ : ٢٦] ، هذا هو فعل ربك بأوليائه ، تعلقت قلوبهم به ، إن توكلوا عليه سبحانه .

أنت ما تؤتى إلا من قِبَلِ نفسك ، وقد سمعت قول القائل : رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، قيل : وما الجهاد الأكبر ، قال : جهاد النفس ، لو أقمنا أنفسنا على طاعة الله ، لو ترجمنا ما تعلمناه إلى عملٍ ، والله لما نهض أمامنا غربٌ ولا شرق ، لا أمريكان ولا يهود ، إن وثقنا صلتنا بربنا ، إن احتسبنا الأجر عنده ، إن أحسنَّا المسير إليه سبحانه يفتح علينا الدنيا بأسرها ، وربك ـ تبارك وتعالى ـ هو القوي المتين ﴿ **إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ** ﴾ . [محمد : ٧] .

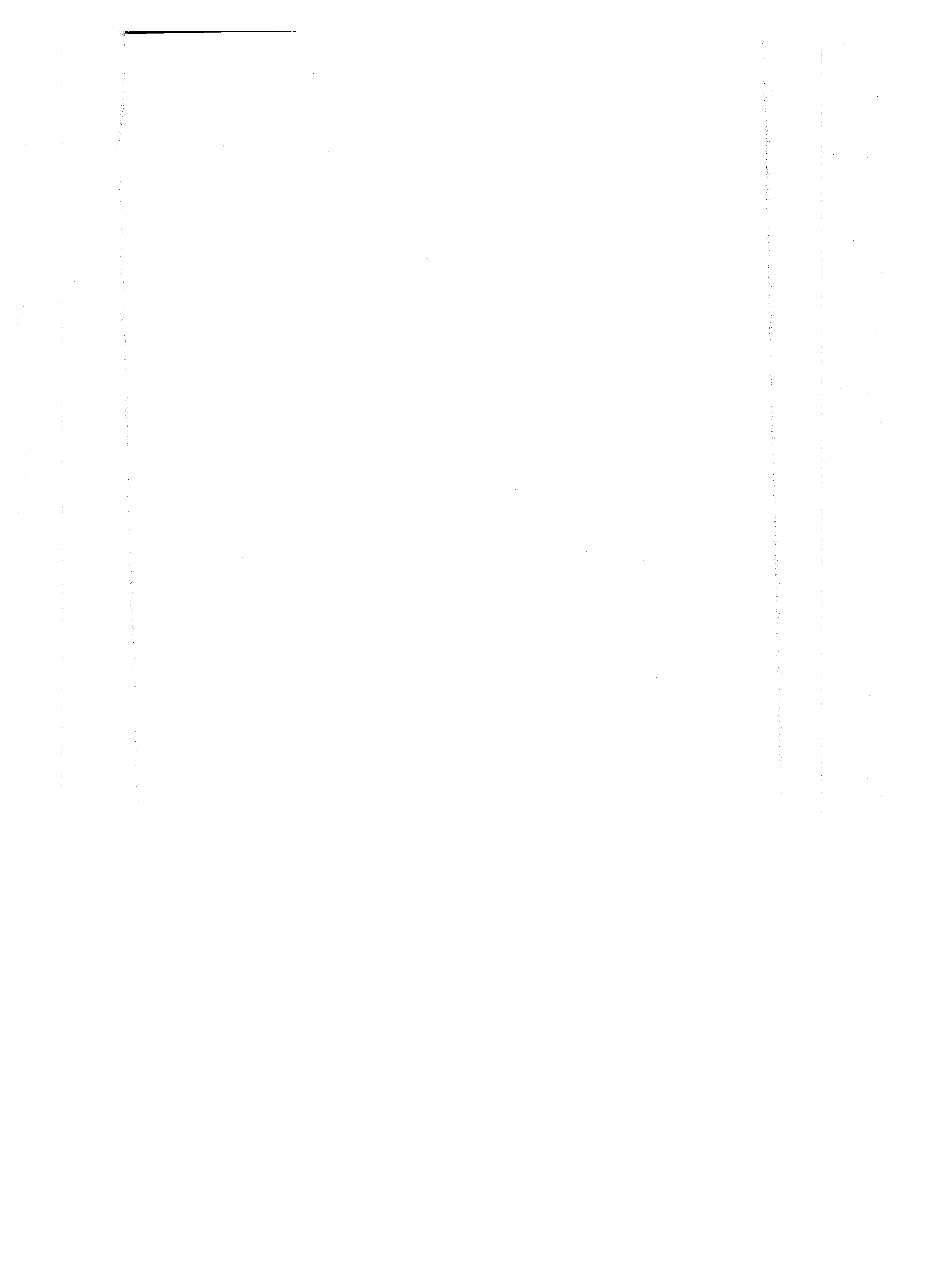
ترجم ما تعلمته لعملٍ صالح :

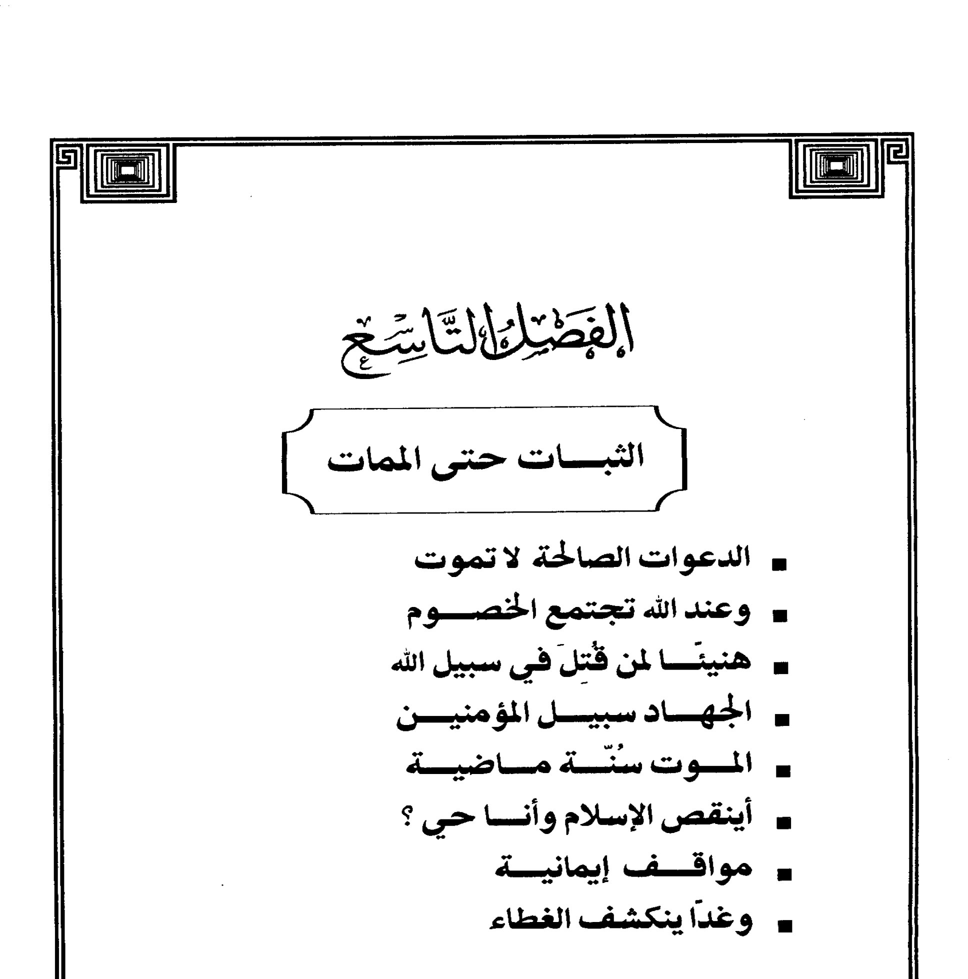
نستمطر رحمة ونستدفع نقمة بصدق الإيمان بالله ـ جل وعلا ـ والتوكل عليه سبحانه ، واحتساب الأجر عنده ، فإن وجدت من أمامك قد تخلف ولم يملك من الحصيلة إلا مجرد كلمة عن التوكل أو غيرها فأصدق أنت ، انتفع أنت بقول القائل ترجم ما تعلمته إلى عملٍ صالح ، إلى واقعٍ وسلوك .

تصعد في العاجل والآجل عسى ربنا يفتح بك كل مستغلق ، عساه سبحانه يجدد بك دينه ، يعلي بك أمره ، وما ذلك على الله بعزيز ، يفعل بك على

حداثة سنك ما فعله بالأبناء ، عندما دخلوا العماليق وعلى الجبابرة الباب ، انتصروا عليهم ، كانوا ضخام الأجسام ، ضعاف القلوب ، وهذا شأن كل من كفر بالله ـ تبارك وتعالى ـ لا داعي للتهويل ولا داعي للتهوين ، ما نحتاج إلى صدق اللحظة ، صدق الإيمان مع الله في لحظتنا هذه ، احتسى خالد بن الوليد السم ، سمى الله ـ تبارك وتعالى ـ وعلم أنه لم يضره بإذن الله تعالى ، قومٌ قلوبهم تعلقت بربهم فصنع بهم الأعاجيب ، ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾[الرعد : ١١] .







الفصل التاسع

الثبـــات حتى الممات

- الدعوات الصالحة لا تموت
- وعند الله تجتمع الخصــوم
- هنيئـــا لمن قُتِلَ في سبيل الله
- الجهــاد سبيــل المؤمنيــن
- المــوت سُنّــة مــاضيــة
- أينقص الإسلام وأنــا حي ؟
- مواقـــف إيمانيـــة
- وغداً ينكشف الغطاء

الفصل التاسع

الثبات حتى الممات

الدعوات الصالحة لا تموت :

مات نبي الله موسى - صلوات الله وسلامه عليه - في فترة عصيبة ، في فترة التيه ، وكأن النفوس كانت تتعلق به في خروجها من هذا التيه الذي دخلته واستمرت فيه زمنًا طويلاً ؛ أربعين سنة يتهيون في الأرض، قال سبحانه وتعالى : ﴿ **فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ** ﴾[المائدة : ٢٦] ، وكان في مواجهة الجبارين ، في مواجهة العمالقة ، قومًا يتربصون بهم الدوائر ، كان هذا هو شأنهم .

وكان نبي الله موسى - صلوات الله وسلامه عليه - ومن آمن معه قد أمروا أن يدخلوا عليهم فاتحين حتى يدلونهم على طريق الله ، حتى يبلغونهم أمر الله - جل وعلا - ، كان من بني إسرائيل ما كان من التخلف عن الجهاد في سبيل الله ، وقالوا لنبي الله موسى ﴿ **فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ** ﴾[المائدة : ٢٤] .

فتربصوا بالرجلين الصالحين اللذين دلاهما على طريق الله ؛ قالوا لهم : ﴿ **ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾[المائدة : ٢٣] ، كادوا يفتكون بالرجلين ، ومن قبل اتهموه نبي الله موسى - صلوات الله وسلامه عليه - بقتل أخيه هارون ، لحظات عصيبة يموت فيها نبي الله موسى - صلوات الله وسلامه عليه - ، فهل كانت حياته لازمة للخروج من التيه ؟ ، وإلا فقد خرجوا بعد ذلك على يد فتاه ، على يد تلميذه ؟ « يوشع بن

نون » ، وهو النبي في بني إسرائيل من بعد نبي الله موسى ، دخلوا وما كادوا يدخلون على العماليق من الباب حتى انتصروا عليهم .

ويبقى السؤال : هل كانت حياة نبي الله موسى - صلوات الله وسلامه عليه - لازمة للخروج من التيه ؟ ، ولإستمرارية هذه الرسالة ؟! .

البعض لا يحسن التعامل لا مع الأحياء ولا مع الأموات ، البعض لا يكاد يأخذ درسًا ولا عظة ولا عبرة ، لا يكاد يقف مواقف البصيرة وخصوصًا إذا ما أدلهم الأمر ؛ إذا ما اشتدت المصيبة ، والموت مصيبة بلا شك ، ولذلك قال سبحانه : ﴿ **فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ** ﴾ [المائدة : ١٠٦] .

تتفاوت المسائل وتتفاوت الاجتهادات أو الآراء أو المواقف في حذرٍ كهذا ، من الناس من يشمت منهم من ييأس ، ولك أن تتخيل حال بني إسرائيل وما هم عليه من درجة إيمانية ، ولك أن تتخيل أيضًا حالة الناس من حولهم ، جبابرة وعماليق ، والناس قديمًا وحديثًا لا يستوون ، درجات عند الله ، منهم المحسن ، ومنهم المسيء ، منهم المؤمن ومنهم الكافر ، وكل إناء بما فيه ينضح ، والمؤمن له شأنٌ وللناس شأن ، ستجد البعض ييأس ويقنط من رحمة الله ، البعض عنده إرجاف ، عنده تخذيل، البعض الآخر قد يشمت في مصاب المسلمين ، كل ذلك وارد ، والبعض عنده رباطة جأش ، عنده من البصيرة ما يجعله يستبصر لمواضع الأقدام ، وأنه ليس دون الله منتهى .

مات نبي الله موسى - صلوات الله وسلامه عليه - في التيه ﴿ **كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ﴾ [آل عمران : ١٨٥] .

هذا هو قضاء الله - تبارك وتعالى - ﴿ **كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧)** ﴾ [الرحمن : ٢٦-٢٧] .

وقال : ﴿ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٤] .

وقال : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥) ﴾

[آل عمران : ١٤٥] .

قدَّر سبحانه بموت كل مخلوق ، حتى ملك الموت ستُقبض روحه ، حتى جبريل ستُقبض روحه ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [غافر :١٦] .

وعند الله تجتمع الخصــوم :

يومٌ عظيم يجمع فيه الله سبحانه الأولين والآخرين،وعند الله تجتمع الخصوم ، وغداً ينكشف الغطاء وأنت ميت ، تبكي على ميتٍ وكل ما فوق التراب تراب ، والبعض لا يحسن التعامل ؛ لا مع الأحياء ولا مع الأموات ، رأى النَّبيّ ﷺ جنازة يهودي فقام لها ، فقالوا : إنه يهودي ، قال : « **أليست نفساً** » (١) .

هذا حدث له مهابته ، له جلاله ، لابد من اتعاظ ولابد من اعتبار ، مرت به جنازة ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فقال : « **مستريح ومستراح منه** » ، قالوا: يا رسول الله،ما المستريح والمستراح منه،فقال: « **العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا ، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد ، والشجر والدواب** » (٢)، والتعب كله في الحياة ، والعجب من راغب في ازدياد ، وستلقاك بما تكره ، فإذا لاقتك بما تحب فهو استثناء ، وهنيئًا لمن قام مقامات الهدى والتقى يبلغ أمر ربه .

جاء حتفه وهو الفارس الذي يواجه أعداء الإسلام والمسلمين ، يذُب عن

---

(١) البخاري ومسلم والنسائي .

(٢) البخاري ومسلم وأصحاب السُنن .

حياض المسلمين ، يزود عن أعراضهم ، هنيئًا ثم هنيئًا ، وإلا فالكل يموت ، وليس الكل يكتب شهيداً عند الله ـ تبارك وتعالى ـ ، ولذلك كان من الخلق من استعد بالكفن على عهد رسول الله ﷺ ، لم ينسوا حقيقة الموت ، بل ارتفعت همتهم ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ طلبًا للشهادة .

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسأل ربه الشهادة في سبيله والموت في بلد نبيه ﷺ ، هكذا كان شأنهم ، هكذا كان حالهم ، لما أتى جُند « الحجاج بن يوسف الثقفي » لأخذ « سعيد بن جبير » فبكاه ابنه ، قال : ما يبكيك ما بقاء أبيك بعد خمسين سنة ، لقد كنت أنا وصاحبان لي دعونا حين وجدنا حلاوة الدعاء وسألنا الله الشهادة ، فكلا صاحبي رزقها ، وأنا أنتظرها ، ومن سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء حتى وإن مات على فراشه ، لك أن تتخيل ، والموت نهاية كل حي ، ﴿ **لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ** ﴾ [الرعد : ٣٨] ، ﴿ **كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ** ﴾ [آل عمران :١٨٥] ، هنيئًا لمن مات في سبيل الله ربه ـ تبارك وتعالى ـ قال سبحانه :﴿ **وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (١٥٨)** ﴾ [آل عمران : ١٥٧–١٥٨] .

هنيئـًا لمن قُتِلَ في سبيل الله :

وبيَّن سبحانه حالة الذين هاجروا وأُخرجوا من ديارهم ، قال : ﴿ **فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ** ﴾ [آل عمران :١٩٥] ، لك أن تتخيل، كفى ببارقة السيوف على رؤوس هؤلاء فتنة ، هؤلاء الذين يواجهون أعداء الإسلام والمسلمين ، هنيئًا لمن قتل في سبيل

الله ، وهذه أعلى مراتب الشهادة ؛ أن يموت الإنسان في ساحة الحرب بأيدي الكفار ، هذه هي أعلى مراتب الشهادة، وإلا فشهداء الأمة كثيرون وعديدون ؛ الحرق شهادة ، والغرق شهادة ، والموت بداء البطن شهادة ، والطاعون شهادة ، والمرأة يقتلها ولدها جمعاء شهادة ، ولكن شهداء الدنيا والآخرة، وأعلى المراتب أن تموت في سبيل الله مُقبل غير مدبر ، محتسبًا الأجر عند الله ،والله أعلم بمن مات وقُتِلَ في سبيله ، وللشهيد عن ربه ست خصال : يُغفر له في أول دفعة من دمه ، ويجار من عذاب القبر ، ويأمن الفزع الأكبر ويحلي حلية الإيمان ، ويزوج من الحور العين ، ويشفع في سبعين من أقاربه ، مرتبة عالية ، جعل الصادق المصدوق ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وهو سيد الأنبياء والمرسلين ، يقول ﷺ : «**والذي نفسي بيده وددت أني أقاتل في سبيل الله فأُقتل، ثم أُحيا ، ثم أُقتل ، ثم أُحيا ، ثم أُقتل** » [١] ، لما علمه من أجر الشهيد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ والناس قد لا يرون إلا تتطاير الرؤوس، لا يرون إلا إسالة الدماء ، والأمر في هذا وغيره على ما عند ربك ـ تبارك وتعالى ـ فالشهيد ما يجد من ألم القتل إلا ما يجد أحدكم من ألم القرصة ،وأرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح من الجنة حيث شاءت، كفى ببارقة السيوف على رؤوسهم فتنة ، لك أن تتخيل وقد مات نبي الله موسى في هذا التيه ؟ ، ما الذي يحدث ؟ ، وما الذي ينقطع ؟! .

الجهــاد سبيــل المؤمنــين :

هل تنقطع الدعوة ، هل يتوقف السير إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ ، الموت نهاية كل حي وأنتم تعلمون كيف مات رسول الله ﷺ وكان النفوس قد أحبته ، هو

---

(١) البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

الذي دلها على طريق الله ، هو الذي فتح الله به أعين العمى ، وأذانًا صُمًّا ، وقلوبًا غُلفًا ، بصرها الله به من العمى ، هداها الله به من الضلالة ،كانت فتنة وأي فتنة ، وهذا شأن البشر؛ من الناس من فر ، ومنهم من دخل بيته ، وأغلق بابه ، منهم من هرب ، منهم من اختلط عليه المعنى حتى صعد عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول مقالته المشهورة : إن أُناسًا من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ قد مات ، والله ما مات ، وليرجعن إليهم ويقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وكان التثبت من أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، استيقن خبر وفاته - صلوات الله وسلامه عليه - ،ثم خرج من حجرة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، فطلب من عمر أن ينزل من على المنبر وصعد هو ، وقال : من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله ، فإن الله حي لا يموت ، وتلا قوله سبحانه : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) ﴾ [آل عمران : ١٤٤] .

وقال : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠) ﴾ [الزمر : ٣٠] .

والرب - جلا في علاه - حي لا يموت ، والأمر كله بيد الله ، والإنس والجن يموتون ، ولابد من استمرارية هذه الدعوة ، لابد من إبلاغ الحق للخلق ، لابد من جهاد كبير ؛ ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩) ﴾ .

[العنكبوت : ٦٩] .

قام الأفاضل بدين الله وبه قاموا - رضوان الله عليهم أجمعين - كانوا رجالاً ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣) ﴾ [الأحزاب : ٢٣] .

انظر لما حدث يوم أُحد ، وكان الشيطان قد أذاع أن محمداً قد مات شأن

الإرجاف والتخذيل في كل آن وحين ، يحدث هنا ويحدث هناك مع هذا الحدث وغيره إرجاف وتخذيل ، شياطين الإنس والجن ، قام الشيطان يذيع أن محمداً قد مات، اهتزت قلوب ونفوس لوفاة رسول الله ﷺ ، لهذا الخبر الذي سمعوه ، وما كان قد مات ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وتوالت آيات سورة آل عمران وكلها جواهر تتلألأ ، كلها نبراس للخلق في هذا اليوم وفي غيره .

يقول سبحانه : ﴿ قَدْ خَلَتْ من قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا في الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) ﴾ [آل عمران :١٣٧] ، قد يتطاول الكفر وينتشر ويفشوا ، قد يسيطر على الخلق هنا أو هناك ، ولكن أمره إلى انتهاء وإلى بوار ، إلى عطب ، يكفي أن تسير سير اتعاظ أو اعتبار ﴿ قَدْ خَلَتْ من قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا في الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (١٣٨) وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) ﴾ [آل عمران :١٣٧– ١٣٩] وتتوالى الآيات ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١٤٠] .

هي المداولة ، سُنن ماضية في الخلق ، ندال عليهم مرة ويدالون علينا أخرى ، ثم تكون العاقبة للمتقين ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ (٥١) ﴾ [غافر:٥١] ، ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ .

[المجادلة : ٢١] .

وضَّحت الآيات طبيعة الطريق ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) ﴾ [آل عمران : ١٤٢] .

والجهاد ماضٍ في الأُمَّة ، لا يوقفه جور جائر ولا عدل عادل ، حتى يقاتل آخر رجل من الأُمَّة المسيح الدجال ، أبقى لهم ربهم ـ تبارك وتعالى ـ ما يسؤهم؛

هذا وعد ربك - تبارك وتعالى - فالجهاد ماض في الأمَّة سواء أكان رسول الله ﷺ حيًّا ، أو انتقل إلى ربه - تبارك وتعالى - وبينت الآيات أن الله - تبارك وتعالى - يصطفي من البشر رسلاً ، يختار البعض شهداء ﴿ **وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ** ﴾ [آل عمران : ١٤٠] ،انظر لإصطفاء ربك - تبارك وتعالى - اصطفاء وتمحيص وتمييز ﴿ **وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١)** ﴾ [آل عمران : ١٤١] ،من الذي سيثبت ؟!،ومن الذي سينقلب على عقبيه القهقرة ؟! ، من الذي سيرجف وسيكون شأنه كشأن المنافقين من قبل الذين قالوا ﴿ **لَوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ** ﴾ [آل عمران : ١٥٦] .

القدر نافذ ، والواجب عليك أن تأخذ بالأسباب ، وأن تفوض الأمر لخالق الأرض والسماوات ، فوض الأمر إلينا ، نحن أولى بك منك ، ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ** ﴾.

[آل عمران : ١٥٦] .

هو المحي الممت - جل في علاه - والخلق كلهم راجع إليه سبحانه ، فلا يجوز الإرجاف ولا التخذيل ولا تقول : ﴿ **لَوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا** ﴾ ، وإلا فالأمر كله بيدي الله ، والرب حكيم عليم - جل في علاه - ما يجوز التخذيل وما يجوز أيضًا الإرجاف ، ولا الشماته ، وإلا فالشماتة هذه هي صنع أعداء الإسلام والمسلمين،والحذر كل الحذر من أن تكون مخلب قط في أيدي أعداء المسلمين ؛ تفرح لفرحهم وتحزن لحزنهم ، المؤمن له شأن وللناس شأن ، لما ماتت البعير للأعرابي ، قام يقول :

لولا الذي أنا عبدٌ في عبادته   لولا شماتة أعداء ذوي فطن
ما سرني أن إبلي في مباركها   وأن شيئًا قضاه الله لم يكن

الموت سُنة ماضية :

كان عندهم تسليم لقضاء الله ـ تبارك وتعالى ـ ولقدره ؛ يبتلي الإنسان فيقول : « **إن لله وإنا إليه راجعون ، اللهم أجُرني في مصيبتي واخلف لي خيرًا منها** » [١] ، ﴿ **الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)** ﴾ .

[البقرة : ١٥٦ ـ ١٥٧] .

كان الرجل يقول : إني لأسمع موت الرجل من أهل السُّنَّة فكأنما قطع عضو مني ؛ هكذا كان شأنهم ، هكذا كان حالهم ، وإلا فمصاب المسلمين واحد ، والمؤمنون تتكافئ دمائهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يدٌ على من سواهم .

نفوس خسيسة تلك التي تشمت في مصاب المسلمين ، تلك التي تفرح بقتل مسلم هنا أو هناك ، وخصوصًا إذا ما قام يدافع عن الإسلام والمسلمين ، تتبدل وتنتكس المعايير ، وكان النَّبيّ ﷺ يتعوذ بالله من « **سوء القضاء ، ومن درك الشقاء ، ومن شماتة الأعداء ، ومن جهد البلاء** » [٢] .

هكذا كان يتعوذ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ترتج المعاني في نفوس الخلق ، والبعض يكاد ينسى حقيقة الموت وخصوصًا والمصاب جلل ، والموت له مهابته قد يحدث ، بل حدث قريبٌ منه مع صحابة النَّبيّ ﷺ ؛ أحبوا نبيهم من كل

(١) مسلم وأصحاب السُّنن واللفظ لمسلم من حديث السيدة أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها .
(٢) البخاري ومسلم ، واللفظ لمسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

قلوبهم ، فما كاد عمر بن الخطاب رضي الله عنه يصدق هذا المعنى وهو الذي سمع وقرأ وحفظ قوله سبحانه : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) ﴾ [آل عمران : ١٤٤] .

تفاوت كبير وعظيم إن مات رسول الله ﷺ أو مات نبي الله موسى في التيه ، فالواجب هو الثبات على طاعة الله ، استمرارية في العبودية لله ـ جل وعلا ـ ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩) ﴾ [الحجر : ٩٩] ، تسير على الدرب ، تنطق كما نطق أنس بن النضر رضي الله عنه : علام الحياة بعده ، قوموا فموتوا على مثل ما مات عليه رسول الله ﷺ .

أينقص الإسلام وأنا حي ؟! :

لسان الحال ينطق في مثل هذه المصائب ، ما نطق أبو بكر الصديق رضي الله عنه وقال : أينقص الإسلام وأنا حي ، وقال : والله لو جرت الكلاب بأرجل أُمَّهات المؤمنين ، ما حللت لواءاً عقده رسول الله ﷺ . يبقى لهم ربهم ـ تبارك وتعالى ـ ما يسؤهم ، ولموتة في طاعة الله خير من حياة في معصية ، والبعض عندهم من علو الهمة ما يجعله يسابق الريح في مرضاة الله ـ تبارك وتعالى ـ لسان حاله ينطق أن ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ [طه :٨٤] .يطلب الموت مظانة،البعض عندهم من علو الهمة ما يجعله ليس فقط يتمنى موتة شريفة محمودة ، يغبطه بها أهل الأرض وأهل السماء ، بل عنده من العزم ، عنده من البصيرة ، ما يجعله يبيع الغالي والرخيص في سبيل مرضاة الله ـ تبارك وتعالى ـ لا يعوقه مال ولا أهل ولا وطن ، ليس دون الله منتهى ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ

الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ﴾ [التوبة : ١١١] .

هذا بيعٌ جليل ، جل في علاه ، اشترى نفسًا هو مالكها ، وتبيع أنت نفسًا لا تملكها وإلا فالنفس إلى موت والمال إلى فوت .

وكان الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ يقول : يا دار تخربين ويموت سكانك ، والكل في ابتلاءٍ واختبارٍ وامتحان ، كيف تكون النجاة غداً ؟ ، كيف تتحقق السلامة والعافية الحقيقية لا المتوهمة ؟ ، وإلا فالبعض يبيع دينه بثمن بخس دراهم معدودة ، ينشد السلامة هي ورطة في الحقيقة ، هي المهانة ، وهي المذلة، « **إذا تبايعتم بالعينة ، وأخذتم أذناب البقر ، ورضيتم بالزرع ، وتركتم الجهاد ، سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه عنكم حتى تراجعوا إلى دينكم** » (١) .

العافية الحقيقة هي عافية القلوب والأرواح ، هي العمل بطاعة الوقت ؛ أن ترتفع إلى مستوى إسلامك ودينك ، أن تغار إذا ما انتهكت محارم الله ـ تبارك وتعالى ـ ، أن ترى أعداء الإسلام والمسلمين كالجبابرة العماليق بالأمس يتربصون بالأُمَّة الدوائر ، ينتهكون الأعراض ، يقتلون الشيوخ الركع وبهائم رتع وأطفال رضع ، وأنت الذي تكمن وتتخاذل ، على الباغي تدور الدوائر ؛ وهي السُنن لا تعرف المحاباة ، لا تعرف المجاملات .

ضاعت الأندلس ، بلادٌ وأي بلاد ، لما أشربنا حب الدنيا وكراهية الموت : **﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾** [البقرة : ٢١٦] .

ما ضاع وما خاب من قام في مقامات الهدى والتقى ، من باع نفسه لله

(١) أبي داود وأحمد وصححه العلامتين أحمد شاكر ، والألباني ، واللفظ لأبي داود .

اشتراها ، من تعامل مع الله ، لا رجوع إلى وراء ، لا خيبة ولا ضيعة عليه ، تشتري نعيمًا لا ينفد ، وقرة عين لا تنقضي ﴿ **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣)** ﴾ .

[الأحزاب : ٢٣] .

كن هذا الرجل ؛ ارتفع إلى مستوى إسلامك، وإلا فالبعض ما غيَّر وما بدل وما رضى بغير الإسلام دينًا،وكان هذا هو الشأن والحال،شأن من تقدمنا بإحسان :

مَلَكنَا هَـذِهِ الدُّنيـا قُـرُونًـا وسـادَهَـا جُـدودٌ خالِـدونَ
وسطَّـرن صَحَائِـفَ من ضياءٍ فمـا نَسِيَ الزَّمـانُ ولا نَسِينَـا

ورثنا ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ** ﴾ ربنا ـ تبارك وتعالى ـ جعل لك ذكرٌ وخبر ، إن استقمت على شرع الله ـ جل وعلا ـ فإن انحرفت عن منهجه لا تلومن إلا نفسك ، وفي الحديث القدسي : « **يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيرًا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه** » (١) .

مواقف إيمانيـــة :

قد تختلط المعاني ، قد تختلف قلوب وقد تضطرب نفوس،ويبقى أن ندعوه سبحانه بدعاء نبيه : « **اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم** » (٢) .

---

(١) مسلم وأصحاب السُنن ، واللفظ لمسلم من حديث أبي ذر رضي الله عنه .

(٢) مسلم وأصحاب السُنن ، واللفظ لمسلم من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها .

ولابد من التعرف على السُنن الشرعية وعلى السُنن الكونية ، وإلا فما أكثر الحوادث التي تمر من بيننا ، وكلنا بحاجة لأن يخرج من هذا التيه ، إذا كنا دخلنا بسبب طمس معاني الإيمان ، انطمست البصائر والأبصار فكان لابد من عودة صادقة لكتاب الله ولسُنَّة رسول الله ﷺ حتى يتيسر لنا الخروج من هذا التيه ، قد يموت فلان أو علان ، والله حيٌّ لا يموت ؛ والإنس والجن يموتون ، والفارق كبير بين من رفع رأسه بدين الله - تبارك وتعالى - وبين من توارى خجلاً وكأن على رأسه البطح .

نحن نحتاج لأن نثبت على طاعة الله - تبارك وتعالى - الفارق كبير بين من يدل المؤمنين على طريق الله ، بين من يرجوا لنبيه السلامة والنجاة ؛ كحال أبي بكر يوم الهجرة ، عندما قال للنَّبيّ ﷺ : « **إن أهلك أهلك وحدي ، وإن تهلك تهلك معك الدعوة** » وهو الموقف الذي وقفه مؤمن آل فرعون مع نبي الله موسى من قبل عندما أتى من أقصى قال : ﴿**قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ**﴾ [القصص : ٢٠] .

هذه مواقف إيمانية ، منها الحب لله ولدين الله ولدعاة هذه الأمة ، هذه مواقف إيمانية محمودة لأهلها ، ولذلك ذكرت في كتاب الله وفي سُنَّة رسول الله ﷺ ، ويئس الخونة الذين يدلون أعداء الإسلام والمسلمين على عورات المسلمين، هذا شأن يهوذا الخائن الذي دل على نبي الله عيسى من قبل ، فأرادوا قتله وهو يعلم ذلك ، فأنجاه ربنا - تبارك وتعالى - : ﴿**وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ**﴾ [النساء : ١٥٧] .

والشهيد حي عند ربه ، حياته برزخية ، الفارق كبير بين من يبغيها عوجًا كشأن المنافقين من قبل ، يتربصون بالمؤمنين الدوائر ، ولك أن تتخيل ؛ مات

النَّبيّ ﷺ يوم مات ، فعانت أمم ، وضاقت نفوس ، فرح البعض ، فرح المنافقون والمرتدون ، فرح يهود بموت رسول الله ﷺ ، ولذلك عندما نقول اليوم كالبارحة هذا لا يتعجب له وإلا فالأشكال والأصناف هي هي، والكفر هو هو ، والمسلم الصادق هو هو ، صور تتكرر في كل عصر ووقت، حاول البعض أن يفتك برسول الله ﷺ ، كما حاولت بنو إسرائيل الفتك بنبي الله موسى - صلوات الله وسلامه عليه - هذا من عجيب الأمر ، ما الذي يثبت على طاعة ربه - تبارك وتعالى - من الذي يرفع رأسه بدين الله فلا يبالي لشماتة شامت ، ولا لحسد حاسد ، والبعض يأبى إلا أن تخرج الدعوة من جيبه الخاص ، يحجِّر واسعًا ؛ فالحلال ما أحل هو ، والحرام ما حرم هو ، والموقف والدين ما كان قاصرًا على شخصه هو ، والواجب على الكل أن يقيس نفسه بكتاب الله وبسُنَّة رسول الله ﷺ .

لما ذُكِرَ صاحب ياسين ، ذكره سبحانه بأحسن مواقفه ، لم يذكر الهفوات التي بدرت منه ، وأنا أقسم بالله كانت له هفوات ، ما ذُكر صاحب ياسين ، بمقعده ومشربه ، بتسريحة شعره ، ما ذكر بالملابس التي كان يرتديها ، وأنا أقسم لك بالله كان يأكل ويشرب ، كان يرتدي ملابس ، ولكن لما ذُكِرَ في كتاب الله ذكره سبحانه بأعظم وأحسن مواقفه ، بموقفه في الدعوة إلى الله ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) ﴾ [يس : ٢٠-٢٢] .

موقف إيماني ثابت وعلو همة ، هذا هو الموقف الذي ذكره سبحانه عنه ، ونفس القضية هي هي ، محتاجين لبصيرة ؛ نفس الموقف ذكره سبحانه عن مؤمن آل فرعون ، قال : ﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢) ﴾ [غافر : ٤١-٤٢] .

أما بالنسبة لصاحب ياسين نهايته أن صرعوه ؛ أن قتلوه لم يعبأ بذلك ، وكذلك الأمر بالنسبة لمؤمن آل فرعون بعدما مقالته ، حاولوا قتله ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ﴾ [غافر: ٤٥] ، بالنسبة لصاحب ياسين هانوا على ربهم بعد مصرعه، والرب قدير ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم : ٤٧]، هانوا على ربهم ، يقول سبحانه ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [يس : ٢٨-٢٩] .

هذه الدماء الذكية من شأنها تحيا بها القلوب ، من شأنها أن يمتد بها الأثر ، هذا هو شأن مؤمن آل فرعون ، هل كان معصومًا من الذلل ؟ ، بل قطعًا لا ، ولذلك لا يصح ذكر أموات المسلمين بالإساءة أو بالتنقص وخصوصًا إذا ما كان لهم شأن وخبر ، وأنا وأنت لربما سيمر علينا التاريخ بلا ذكر ، بلا خبر ولا أثر ، ولن يكون لنا شأن كشأن صاحب ياسين .

التاريخ تعرض « لصلاح الدين الأيوبي » ما ذكر أشعريته ولكن ذكره بأعظم مواقفه ، ذكره بثباته في مواجهة الصليبين ، في انتصاره يوم حطين ، وكذلك كان الأمر بالنسبة لقطز ، والظاهر بيبرس يقولون : إذا ما ذكر قطز ، يقولون قد انتصر على التتار في عين جالوت ، ما ذكرون حتى ولا يقفون مع قتل بيبرس لقطز : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [البقرة : ١٣٤] .

ذكر ربنا سبحانه أهل الجنة فذكرهم بأحسن ما عملوا وتجاوز عن سيئه سبحانه ، وهذا محض فضل وكرم من الخالق - جل في علاه - يقول سبحانه : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ

سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [فاطر : ٣٢] .

والسابق بالخيرات هو رجل غلبت حسناته على سيئاته ، فكان إلى العفو أقرب ، محتاجين لوقفة صدق ، مات نبي الله موسى في التيه - صلوات الله وسلامه عليه - ، وكأن ببعض بني إسرائيل قد انتابهم الحزن ، ولِمَ لا والنَّبيّ ﷺ قال : « **إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضي ربنا ، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزنون** » (١)، وما يقول ما يغضب الرب ،هكذا كان شأنه ﷺ ، ماتت أم المؤمنين خديجة ﵂ ، ومات عمه أبو طالب فسمى هذا العام بعام الحزن ، وقال نبي الله يعقوب - صلوات الله وسلامه عليه - عند فقده لابنه نبي الله يوسف - عليهما السلام - قال : ﴿ **إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ** ﴾ .

[يوسف : ٨٦] .

حزن ينتاب المسلمين على الفواجع،على المصائب التي تحدث، على نكاية الأعداء في المسلمين هنا وهناك وكأن أعراضنا صارت مستباحة،وكأن دماء المسلمين لا شأن لها ولا قدر لها : « **لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم** » (٢) .

حرمة المسلم كبيرة وعظيمة عند الله - جل وعلا - كان الواجب علينا أن نعظم حرمات الله - تبارك وتعالى - هي دماء ذكية تبعث حرارة الإيمان في النفوس نحزن بلا شك ، ولا مانع أبداً من أن نحزن ولكنه ليس بالحزن الذي يقطع النفوس عن إحسان المسير إلى الله - تبارك وتعالى - وإلا فأبو بكر الصديق - رضوان الله عليه - كان أكثر الناس محبة لرسول الله ﷺ ، حتى قال ﷺ قرابة موته في المرض الذي

(١) البخاري ومسلم ، واللفظ للبخاري من حديث أنس بن مالك ﵁ .
(٢) الترمذي والنسائي وصححه الألباني - رحمه الله - .

مات فيه ، قال : « **ولو كنت متخذاً من الناس خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن خلة الإسلام أفضل ، سدوا عني كل خوخة في المسجد غير خوخة أبي بكر** »(١) : ﴿ **ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** ﴾ [التوبة : ٤٠] .

ولكن حزن الرجال، عندما مات النَّبيّ ﷺ ما توقف العطاء، ما توقف النبل، كانوا رجالاً بحقٍ وبصدقٍ ، كانوا عباداً عندهم من البصيرة ما جعلهم يخلصون العمل لله ، يواصلون الجهاد الكبير في سبيل الله ، وإلا فأعداء الإسلام والمسلمين يتربصون بهذه الأُمَّة الدوائر ؛ وهؤلاء هم الذين يعكرون أمر البلاد والعباد ، ما يحبون الخير ، بل عكسوا المفاهيم ويصبح المسلم الذي يدافع على أهله ووطنه هو الإرهابي ، أما هؤلاء الأعداء الذين يكيدون للأمَّة ويتربصون بها الدوائر ، وما يراعون لها حرمة وفيهم يقول سبحانه وتعالى :

- ﴿ **قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ** ﴾ . [آل عمران : ١١٨] .
- ﴿**وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ**﴾ [البقرة : ١٢٠] .
- ﴿**وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا** ﴾ . [البقرة :٢١٧] .
- ﴿**وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ**﴾ [فاطر : ١٤] .
- ﴿**يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ**﴾ [الأنفال : ٣٦].
- ﴿**لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً** ﴾ [التوبة : ١٠] .

(١) البخاري ومسلم ، وأصحاب السُنن واللفظ للبخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

هذا هو شأن أعداء الإسلام والمسلمين ، فما هو شأنك وما هو حالك ؟ ، أتدفع الجزع الذي يوقفك عن طاعة الله عن الجهاد في سبيل الله - تبارك وتعالى - لابد من علو في الحياة وعند الممات ، لابد من حسن تعامل مع الأحياء ومع الأموات ، لابد أن نأخذ درسًا وعظة وعبرة من الحوادث التي تموج من حولنا .

نرتفع إلى مستوى إسلامنا وإلى مستوى ديننا عسى ربنا أن يغير حالنا لأحسن الأحوال ، والمستقبل للإسلام بغلبته وظهوره على الأديان كلها ، والرب أرحم بعبده من الأم بولدها ، ولا أعجب من قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا مَا أَصَابَكُمْ** ﴾ [آل عمران : ١٥٣] .

لما كان يوم أُحد قُتِلَ سبعون من خيرة الخلق ، قُتِلَ منهم حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله ، قُتِلَ مصعب بن عمير فتى قريش المدلل ، قُتِلَ عبد الله بن جحش أبو أم المؤمنين وقائد الرماة - رضوان الله عليهم جميعًا - ، والواحد منهم بأُمَّة ، حدث الحزن وخيم الحزن على النفوس ، وفي هذه الأثناء سمعوا بمقتل رسول الله ﷺ ، فانتقل حزنهم من حزن على الصحابة الأجلاء إلى حزنٍ على فقد رسول الله ﷺ ، ثم سرعان ما علموا بحياته - صلوات الله وسلامه عليه - ، فلما كان الأمر كذلك تبدل حزنهم إلى فرح .

من أجل ذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿ **فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا مَا أَصَابَكُمْ** ﴾ [آل عمران : ١٥٣] ، ربنا - تبارك وتعالى - أبدلهم هذا الحزن فرحًا ، وإلا فشأن الحزن بعد الحزن أن ينقطع به العبد ﴿ **فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا مَا أَصَابَكُمْ** ﴾ .

انظر : يقول سبحانه ؛ يبيِّن - جل في علاه - أن خبر حياة النَّبيِّ ﷺ كان بمثابة الفرح والبهجة بعد هذا الحزن الذي ألم في النفوس ، وقد تختلط المشاعر ،

مشاعر الحزن مع مشاعر الفرح ؛ فهذا يُقتل شهيدًا تحزن لفقده ، وفي ذات الوقت وتفرح لنيله الشهادة في سبيل الله ـ تبارك وتعالى ـ ، تقول : هنيئًا له ، مستريح يستريح من عناء الدنيا ونصبها ، وتعبٌ كلها الحياة .

وغـــداً ينكشف الغطـــاء :

والإنسان في سيره إلى الله يريد أن يطمئن على نفسه ، يريد أن يرتاح ، والراحة عند أول قدم تضعها في الجنة ، وإلا فلابد من جهاد كبير وغداً ينكشف الغطاء ، والرب قدير ـ سبحانه ـ .

- ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ [الفرقان : ٢٠] .
- وقال سبحانه : ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ .

[آل عمران : ١٢٠] .

- وقال سبحانه : ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ .

[آل عمران :١٨٦] .

فلابد من عبادة حقة ، لابد من إسلام الوجه لله ، لابد من بصيرة وخصوصًا إذا ما ادلهمت الشبهات وحلت الشهوات ، محتاجين لعلم نافع وعمل صالح ، ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨) ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

فتلك سبيل الأنبياء والمرسلين والصالحين من بعدهم ،ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ، ولا سبيل للنجاة من التيه إلا بذلك السبيل .



الخاتمة

تكررت قصة نبي الله موسى عليه السلام وبني إسرائيل في مواضع كثيرة من كتاب الله ، وللقصص القرآني بصفة عامة فوائد كثيرة ، ففيه إيضاح أُسس الدعوة إلى الله وبيان أصول الشرائع التي بُعث بها كل نبي ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ** ﴿٢٥﴾ ﴾[الأنبياء : ٢٥]، وفيه تثبيت لقلب النَّبيِّ ﷺ وقلوب أُمَّته على دين الله وتقوية ثقة المؤمنين بنصرة الحق وجنده ، وخذلان الباطل وأهله ﴿ **وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴿١٢٠﴾ ﴾[هود : ١٢٠] .

كما أن فيه مقارعة أهل الكتاب بالحجة فيما كتموه من البينات والهدى وتصديق الأنبياء السابقين وتخليد ذكراهم ، وإظهار صدق محمد ﷺ في دعوته بما أخبر به عن أحوال الماضين عبر القرون والأجيال .

وقصة نبي الله موسى عليه السلام - بصفة خاصة - ذُكرت في أكثر من عشرين موضعًا من كتاب الله ، فقصته مع فرعون تمثل الصراع بين الحق والباطل أتم تمثيل ، وهو أحد أولي العزم من الرسل كرسول الله ﷺ ، ورسالته التوراة رسالة مستقلة كالقرآن بعكس الإنجيل ، وقد بُعث إلى بني إسرائيل فوجد منهم عنتًا وانصرافًا رغم كثرة الآيات البينات ، والبراهين الواضحات ، والنعم المتواليات ، وكانت قصته مع بني إسرائيل في التيه هي إحدى هذه القصص التي قصها سبحانه وتعالى علينا ، وهي قصة حقيقية لا خيال فيها ، وشأنها في ذلك كشأن سائر قصص القرآن ﴿ **وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ** ﴾[الإسراء : ١٠٥] ، وقال سبحانه : ﴿ **نَّقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ** ﴾[الكهف : ١٣] .

وقصة التيه هذه تلقى بظلالها على واقعنا الذي نعيشه ، لذا كان لابد من تسليط الأضواء عليها حتى توضع في موضعها اللائق بها ، فما حكيت هذه القصة لمجرد التلذذ والاستمتاع ، ولكن لأخذ الدروس والعظات والعبر ، فالتيه المعنوي الذي نعيشه كأفراد ودول وجماعات يقترب من التيه الحسيي الذي عاشته بنو إسرائيل ، شعب الله المختار ، والمدخل والمخارج تكاد تتشابه عند من كان لديه بصيرة ، ولا يختلف على ذلك من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، وحسب كل من انشغل بهموم أُمَّته ، « **ومن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم** » ، أن يعيد قراءة القصة والآيات البينات الواردة بشأنها قراءة تدبر وتأمل ، وينظر لواقع الأمة بعين الاعتبار ، للتعرف على الداء والدواء ، بعيداً عن تشخيصات الملاحدة والزنادقة ، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

كتبه

سعيد عبد العظيم

يغفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

نسأل الله حسن الخاتمة

فنسأله جل في علاه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجعل جمعنا هذا جمعًا مرحومًا ، وأن يجعل تفرقنا من بعده تفرقًا معصومًا ، ولا يجعل فينا ولا منا ولا بيننا شقيًا ولا محرومًا ، اللهم إنا نسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى ، اللهم دبر لنا فإنا لا نُحسن التدبير ، اللهم من أرادنا وأراد الإسلام بسوءٍ فأشغله في نفسه ، واجعل كيده في نحره ، واجعل تدبيره تدميره يا سميع الدعاء ، اللهم قاتل الكفرة الذين يصدون عن سبيلك ، ويكذبون رسلك ويخالفون وعدك ، اللهم خالف بين قلوبهم ، اللهم أنجى المسلمين المستضعفين في كل مكان ، اللهم انصر عبادك المجاهدين في كل مكان ، اللهم اربط على قلوبهم ، اللهم ثبت أقدامهم ، اللهم انصرهم على عدوك وعدوهم .

اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دينانا التي فيها معاشنا وأصلح لنا أخرتنا التي إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر .

اللهم أقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك ، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا ، ومتعنا اللهم بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا أبدًا ما أحييتنا ، واجعله الوارث منا ، واجعل ثأرنا على من ظلمنا ، وانصرنا على من عادانا ، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا ، واجعل الجنة هي دارنا ، ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك فينا ولا يرحمنا ، وسبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلامٌ على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

فهرس



هاتف : ٢٩٨٤٣٧٥
فاكس : ٢٤٣٣٢٤٩
محمول : ٠١٠١٩٠٠٠٣٨